مكتبة الأسرة 1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الابداعية

أم العواجز

يحيى حقي



أم العواجز

أم العواجــز

يحيى حقــى

القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٩
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

أم العواجز

يحيى حقى

الغلاف

الفنان: جمال قطب

الإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

هذه مجموعة قصص ترجع لعهود مختلفة من حياتى.، يتضمن بعضها ذكـريات الصبا والشباب ، ظلت تسألنى ، وأنا أتشاغل عنها ، أن أجمعها فى كتاب ، لنعيش معا من جديد كأفراد الأسرة يجتمعون بعد تفرق تحت سقف واحد ، لا فرق عندى بين صغيرها وكبيرها ، جميلها ودميمها ، فلست أنا ، بل النـاس - كدأبهم - هم الذين يحكمون .

« ى »

(يوليو ١٩٥٥)

أم المَواجز

سبحان الذى وسع ملكه الخلق كله ، ولا اعتراض على حكمه فلا أبتغى هنا إلا أن أروى قصة إبراهيم أبى خليل وهو يهبط درجات الحياة ؛ كورق الشجر فى الخريف ، قد ترفعها الرياح قليلا ، ولكنها - حتى فى ارتفاعها - تنطق بالهبوط المكتوب عليها ، رويداً رويداً إلى أن يتوسد حدها الثرى وتدوسها الأقدام . شهدته وهو ينزل آخر درجات السلم . وقد علمت فيما بعد أنه يتيم وتلطم فى صغره ولا أدرى أهو حضرى أم ريفى ، واعتقادى أنه من أولاد البلد ، واستفتح شقاءه بالخدمة فى المنازل ، ثم إذا به بائع ترمس على عربة يد صُفَّت عليها قلل قناوية ، زُيِّنت حلوقها بالورد والريحان ، وقد سمعت أنه فتح بعد ذلك دكاناً صغيراً للعطارة ، ثم ارتد بائعاً متجولاً كل بضاعته دبابيس وإبر مواقد الغاز ومشابك الغسيل ، يقفز بها من ترام إلى ترام . وفى حياته فترات متقطعة لم يصلنى خبرها وأغلب ظنى أنه ذاق لتشرده أحياناً لسعة الأسفلت فى «قره ميدان» .



وكان قبل أن أعرفه بقليل يحتل فى الميدان ركن الرصيف المثلث المواجه لدكان التركى بائع الحلاوة الطحينية ، ويجلس وأمامه «مشنة» فيها فجل وجرجير وكرات ، ولا يزيد نداؤه عن قوله «الفجل ورور ، والجرجير العال» . لا ينطق وجهه بأثر ما يدل على هذه العهود التى تقلب فيها ، وهذه المهن التى ظلت تركله واحدة بعد أخرى ، فهؤلاء الناس يتقبلون الحياة كما هى ، لكل نهار قسمته ، وكل يوم ينقضى يموت - مثلهم - بلا تركة ، هم يدخلون الحلبة وقد مات إحساسهم : أمن الجهل مات أم من البلادة أم من القناعة والرضا ، فلا تطرف أعينهم للكلمات المنهالة عليهم ؟ ولكن يجدر بك ألا تسارع فى الحكم عليه فقد تكون ظالماً له ، فإنك لو عرفته مثلى لوجدته رجلاً سطيم الطوية أنيساً مهذب اللفظ كريماً .

ورغم ما يبذله من جهد ليتصيد لقمته ويقيم أوده فإن قلبه لا يعرف الحسد ولا الضغينة ، تنبئك عيناه اللتان خيمت عليهما السحابات أن فى قلبه ميلاً دفيناً إلى الفكاهة والدعابة ، وتأسرك نظرته لأن الابتسامة فيها تتملص من حجاب إثر حجاب ، فكأنك تشهد تصويراً سينمائياً بطيئاً لابتسامة العين وهى تولد ، وكان إذا رفع وجهه إلىّ ظلل عينيه بكفه ، فيخيل إلى أن العالم قد تضاءل إلى هذا الإطار الذى انفردنا فيه نحن الاثنين ، وأن حديثه مسارة خافتة فى خلوة .

يحتل أبو خليل مكانه المعهود قبل الظهر بقليل ، فإذا جاء العصر ، حين تفرغ أو تكاد «مشنة» النهار ، قام وسار متثاقلا كعادته ، وأخذ يجول فى الميدان ، ويمر على كثيرين من أصحاب الدكاكين ، ويتريث عند هذا أو عند ذاك ، فيسألونه عن حاله ، ويسألهم عن حالهم ، وبعضهم يتندر معه ويضحكه .

وكان له صديق يشترى منه رغيفاً يحشوه بالطعمية ويدسه تحت إبطه ، وصديق آخر يشترى منه أرخص السجائر ويضعها فى علبة من الصفيح فوق حزامه بين جسده وثوبه ، ثم يترك أصدقاءه لرصيف المسجد ليتنسم الهواء – كما يقول – ويتعرف على الوارد فى ذلك اليوم . فإذا بلى جديد ما يراه عاد إلى مكانه وجلس وبسمل وأكل غداءه ، حتى إذا فرغ منه قبل يده ظهراً وبطناً وحمد الله ، وهيأ لجسده جلسة مسترخية وأشعل سيجارة يدخنها بلذة كبيرة ، فهو صاحب مزاج . .

ثم يختفى عن الميدان ولا يعود إلا قبيل الغروب ومد «مشنة» المساء . أما عشاؤه فرغيف وقطعة الحلاوة الطحينية يشتريها من جاره البحرى ، ثم يذوب من الميدان حين يخلو من المارة ، ولا أدرى أين ينام ، ولكنى سمعت أنه يشارك امرأة عجوزا مقعدة هتماء فى حصيرة فى حجرة صغيرة تحت حنية سلم آخر زقاق فى نهاية الدحديرة .

هل تزوج ؟ هل له أولاد ؟ هل له أقارب ؟ لست أدرى . إننى أحب أبا خليل ، فلا أريد أن أتحدث هنا عما سمعته عن علاقته العجيبة (ولا براهيم قلب شفيق) بتلك العجوز المقعدة المصنة ، ولا أريد أيضا أن أتحدث عن خياناته لها بين الحين والحين إذا ما فتح الله عليه ، مالا وعافية ، فى تل قريب من السيدة ، فلا أعلم أن نفسى تعافى شيئاً كما تعاف التحدث بسوء عن هذا الحى وأهله .

وذات يوم مشرق صاف ، أقبل أبو خليل على مكانه المعهود من الرصيف فوجد الركن الآخر قد احتلته امرأة حولها ثلاثة صبية ، وعلى صدرها رضيع كأنما يشرب من صدرها خمراً فهو مغمض العينين نشوان لا

يفيق ، والطامة الكبرى أنها جلست أمام مشنة مملوءة بالفجل والجرجير والكرات . ولما بدأت تنادى «زرع العصارى يافجل ، الحزمة بمليم» ارتفع لها صوت مجلجل فى الميدان .

يافتاح يا عليم ! وجلس أبو خليل لحظة وهو صامت يرقبها ، ثم تنهد وانصرف عنها ، وأخذ ينادى هو أيضاً على بضاعته ، وحاول أن يرفع صوته فوق صوتها فلم يستطع ، وأخذته نوبة من السعال ، أراد أن يكلّمها ويسألها من أين أتت ، ولماذا وقع اختيارها على هذا المكان بعينه ، ولكنها لم تأبه له ، ولم ترد عليه . تبيع بيد ، وتفرق صبيانها بيد ، وتنقل بثنى ركبتها طفلها المخمور من ثدى إلى ثدى ، ثم تتحرك كالمقعدة نحو قلتها فيتعرى فخذها قليلا . ولكن هيهات ! إن قلب أبى خليل ثائر لا يهش لها . لعلها إغارة مفاجئة ستنقشع غمتها فى الصباح .

ولكنه وجدها فى الصباح التالى أيضا كالرصد أمامه ، وأخذ يتلفت إلى وجهها وإلى المارة وإلى جيرانه ، ويقوم ويقعد ، ويترك «مشنته» ويذهب يروى لأصدقائه هذا الخبر الداهم ، ثم يعود ، فإذا صوتها يجلجل فى الميدان كأنما تنادى على معشرها فى يوم الحشر العصيب .

واشترى أبو خليل فى تلك الأيام بدل العشر خمس سجائر . انتهت حيلته وانصرف همه إلى مراقبة هذه المرأة الجسور التى هجمت عليه تنافسه فى رزقه . والغريب أنه بدأ يعجب بها ، وحاول أن يبتسم لها مرة ، ومضت الأيام فاذا «مشنته» تقترب قليلا من «مشنة» بدر ، كأنما يريد أن يقول لها «لنشترك معا» ولكنه لم يقلها .

وأحست بدر ان المقام قد استقر بها ، وأن ابراهيم صفر اليدين من السلاح ، بل أدركت أنها أصبحت ذات سلطان عليه ، فتنازلت ذات يوم

وردت عليه ، ثم لم يمض طويل وقت حتى كانت إذا قامت لبعض حاجتها فى الخرابة المجاورة للسبيل ، أوصته أن يجعل باله إلى أولادهـا . وطال غياب ابراهيم عن «مشنته» وتسكعه عند أصدقـائه ووقـوفه على باب المسجد ، هب النسيم أو لم يهب ، فى قلبه أمل خفى . لعل بدر هى رزقه الذى أمطرته السماء ذات يوم على غير ميعاد ، وليس أحب إليه من أن يسلم قياده لهذه المرأة الجريئة ويعيش معها فى كنفها . إنها امرأة - كالرجل - يحق له أن يباهى بها الناس أجمعين . سيتودد إليها ، وسيضاحكها ليضحك معها ، وسينتظر حتى تقضم هى أولا من الرغيف لقمة أو لقمتين ثم تعطيه إياه ليأكل من حيث رفعت فمها ، لعله يتذوق أيضا لعـابها ، هى التى ستوقظه فى الصباح ، وتغطيه بالليل ، وإذا تخابث وغاب عند أصدقائه من أصحاب الدكاكين بحثت عنه وجرته إلى حيث يجب أن يكون . هكـذا كانت تحدثه نفسه . ولكن هل يفاتحها ؟ إنه لا يجسر على ذلك ، فهو لا يعلم عنها شيئاً ، وليس فى الميدان من يعرفها .

وفى تلك الأيام اشترى أبو خليل غداءه من الطعمية نسيئة . ولما اقتربت «مشنته» من «مشنتها» حتى تلامستا ، حدثته بدر ذات مساء - دون أن يسألها - عن حياتها . فإذا بها أيضا من المشاكل التى كتب على ابراهيم أن تكون نصيب روحه وعينيه فى هذه الدنيا .

قالت له إنها حرة وغير طليقة ، متزوجة وتعيش كالأرامل ، فلها زوج غائب لا تدرى مكانه ، هو صعيدى يحمل على ظهره ربطة كبيرة من الفانلات والجوارب والفوط ، يدور بها على المقاهى . يلازمها زمنا ثم يختفى فجأة . وتسمع أنه سافر مرة إلى وجه قبلى . ولا تدرى أهو يهرب منها أم من ثأر قديم يخشاه أم له ثأر يجرى وراءه ليسلم له شرفه . وقد مضى

على اختفائه آخر مرة قرابة سنة ونصف سنة وهى لا تعلم أحى هو أم ميت . والغالب أنه حى يرزق . وإلا لجاءها نبأ وفاته لأن على ذراعه وشما باسمه واسم بلده . أم تراهم سلخوا جلده ؟ أقاتل هو فى السجن ، أم مقتول لا تعلم له قبراً ؟ اختفى وترك لها أولادها فخرجت تسعى إلى رزقها وقادها حسن حظها إلى جوار رجل طيب مثل ابراهيم أبى خليل .

ومرت أيام أخرى فإذا بالألفة بينهما تزيد ، وأخذت بدر تحنو على ابراهيم ، وتشترى له طعامه ولا تطالبه بثمنه ، لأنها خلطت مشنته بمشنتها ، ونقوده بنقودها ، والكل فى جيبها ، وظنت أن حياتها قد انتهت إلى تلك الصورة ورضيت نفسها ذات يوم (ولا تسل أعن اختيار كان أم عن اضطرار ، فليس من اليسير أن تجد بدل الغائب صعيدياً آخر . .) وقالت لابراهيم «لقد اتسخ ثوبك فتعال معى الليلة أغسله لك» .

وكان أبو خليل جالساً أمامها وظهره إلى الطريق ، وأخذ يحدثها وهو لا يشعر بمرور الناس ولا الزمن . . ترى هل ما يراه حقيقة أم من وهم عينيه ؟ خيل إليه أن شفتيها تختلجان فجأة ، ولمعت أسنانها ، وتألقت عيناها ، لا السواد وحده ، بل البياض أيضا . وسمرت نظرتها إلى ماوراءه فالتفت فوجد صعيديا قد حنت ظهره ربطة كبيرة ، يدب إليهما بخطى وئيدة ، نظرة واحدة يدرك أن القادم رجل خشن لا يرحم ولا يستسيغ الدعابة . وحط الرجل حمله وجلس القرفصاء ، ومسح عرقه ، وكان كل ما قاله لبدر :

– كيف الحال ؟

فأجابته :

- الأشيا رضا والحمد لله على سلامتك .

وأطرق الفتى الصعيدي قليلا ثم أدار رأسه ووجه نظرة واحدة إلى أبي خليل فاطمأن قلبه والتفت إلى زوجه يقول :

- لكل شئ أوان ، لكن الصبر طيب .

وقام برهومة ينفض التراب من على مقعدته ، وغاب عن بصرهما وابتلعته زحمة الميدان . .

ومرت أيام كثيرة ، لم أره فيها . قيل إنه أصيب بالحمى ، وقيل بل هي العجوز المقعدة قد علمت بخبر بدر فدسّت في طعامه شيئا انتظرت حتى بذلته لها شابة من جاراتها فلحقه منه أذى كبير .

* * *

غبت عن الميدان وأهله زمناً طويلاً ، ولما عدت ومررت على الرصيف المواجه للتركى بائع الحلاوة الطحينية لم أجد بدرا أم العيال ولا إبراهيم

ثم حدث ذات يوم أن بكّرت في الخروج لبعض أعمالى ودخلت الميدان قبل أن تفتح المتاجر . وأخذت أسنانى تصطك من البرد إذ كنا فى شهر وصفه بين الشهور القبطية : «قلت الشتاء طوبة» . الحفاة يدسّون أصابعهم المتورمة تحت الإبط ، ويسيرون كأنما تطأ أقدامهم العارية شوكا . ينبعث في الميدان بين الحين والحين الآخر سعال أجش غليظ . ثم يتلوه صمت . ثم يسمع بوضوح - وهو همس - نتف من حديث بين

أصوات لا يزال يثقلها النعاس ويلغم الصدر ، ورغم ما تقع عليه عين السائر من الغادين والرائحين فلا مفر له من الشعور بأنه في مدينة مهجورة لا تعرف هؤلاء المارة ولا يعرفونها .

وإذا بي فجأة أكاد أصطدم بابراهيم أبي خليل : ثيابه رثة ممزقة ، ورأسه عار ، وأقدامه حافية ، يسير كالمترنح ، نظرته المعتمة هي هي وابتسامته لم تتغير . خرج في تلك الساعة المبكرة ليؤدي وظيفته التي يجب أن تبدأ وتنتهي قبل أن تنتشر الحركة في الميدان . أصبحت له مهنة جديدة . هي البخور ، وهو عمل لا يتطلب إلا كفة ميزان قديمة ، وسلسلة غليظة وبعض نشارة الخشب وشيئا من فتات اللبان والشيح يضعها ، وكسر الخبز في مخلاة تعلق بالكتف وربما ألقيت فيها أيضا الملاليم والعشرينات الخردة .

أدركت لحظة رأيته أن هذه هي المهنة التي ولد لها أبو خليل ، وكان يجب أن أتوقع أنه سينتهي إليها ، لأنها توافق طبعه ، فهي مهنة سهلة ينعم صاحبها بلذة التسكع ويتسلى بالتطواف على أشكال وأنواع من الناس ، ثم إن دخلها ثابت - فهو من قبيل الاشتراكات ! - وليس لها سعر معلوم ، ولا تخضع لرقابة ولا تبور فيها بضاعة إذا كسدت ، يعترف صاحبها أنه لا يرقى إلى مرتبة الباعة السريحة الذين يكسبون رزقهم من عرق جبينهم ، ولكنك لا تستطيع أن تتهمه بالشحاذة ، فها هو ذا أمامك خارج إلى عمله وعدة الشغل في يده . وإذا كانت هذه المهنة هي هكذا عند عامة أصحابها إلا أنها شيء آخر في نظر أبي خليل ، فهو قد ملّ التجارة بأنواعها ، لأنها شد وجذب وخداع وحيطة ، وفصال لا ينتهي على المليم ، ولكن البخور لا يرتكز إلا على العواطف وحدها ، وهو يؤمن أن تحيته التي يستفتح بها

صاحب الدكان صباحه مجلبة للبركة لأنها صادرة من قلب صاف عطوف مؤمن محب للخير . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولا طبائع الناس . .

لازمته بعد ذلك أياما كثيرة ورأيت بعيني الأسطى حسن الحلاق لايرضى - فهو ليس بالأبله ! ـ أن يدفع إليه المليم إلا بعد أن يجره داخل الدكان ليبخر له المقعد والمرآة والطشت النحاسى الصغير المقطوعة حافته بقدر رقبة الزبون ، ورأيت صاحب المطعم الوطنى لاتقع يده إلا على طعمية واحدة بقيت من أمس أو أول من أمس ، أما التركى فيعطية المليم ويصرفه بحنق وضجر ، ولما ألفة أكثر أصحاب المتاجر أصبحوا يعطونه المليم سواء تصاعد البخور أم لم يتصاعد ، فأهمل أبو خليل تجارته وأصبحت مجمرته منطفئة معظم الصباح ، أو إذا لاح فيها بصيص من النار لم ينبعث منها إلا أسود كريه الرائحة تتأذى منه الأنوف .

وذات يوم مشرق صاف ، أحسست وأنا أسير الى جانب ابراهيم أن الميدان قد سكن فجأة كما يسكن الجو قبل الأعاصير ، وتتوهم العين أن السماء تنتفض كجناح خفاش ، ثم أقبل من شارع مراسينا رجل له عينان براقتان كعينى الصقر ، ثوبه قد ضم سبعين رقعة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، له خطوة مجدة نشيطة لاتعرف الإعياء ، قامته منتصبة ، ولسانه لاينقطع عن تلاوة الأدعية والأوراد ، وفى يده مجمرة ينبعث منها دخان جميل زكى الرائحة ، بل إن سلسلتها صفراء لامعة . . يافتاح ياعليم !

صد أصحاب الدكاكين هذا القادم صدا عنيفا أول يوم ، فهم زبائن أبى خليل وليس من المعقول أن يشتروا فى الصباح الواحد

بركتين قد تفسد إحداهما الأخرى . . ولكنه عاد فى اليوم الثانى والثالث والرابع ، ثم تناول أول مليم . . ثم عاد ومر على كل دكان من جديد سواء رق له قلب صاحبه أم لم يرق . . وقد سحرنى دأب هذا الرجل وقوة إرادته . فتركت صديقى الأعمش وسرت وراء هذا القادم العجيب فإذا به يجرجرنى بخطوته المنجدة النشيطة من السيدة زينب ، إلى ميدان باب الخلق ، إلى القلعة ، إلى السيدة عائشة ، ويشق القرافة إلى السيدة نفيسة ، ثم إلى السيوفيةوالخيمية وبوابة المتولى ، ثم إذا به يأوى الى مقهى صغير فى سيدنا الحسين ، ويخلع عمامته الخضراء ، ويجلس ليدخن الجوزة ، وجلست إلى جواره وأنا ألهث وأتصبب عرقا . . رأيته يسير ساعة من أجل الوصول إلى زبون واحد . . ولم ألق فى حياتى من يسعى الى رزقه بهمة هذا الرجل وصبره وجلده .

وترك برهومة مجمرته ، وأصبح يكتفى بالمرور وحده على أصحاب المتاجر علهم يذكرونه ويعطونه المعلوم ، وتضاءل دخله ، واضطر إلى الوقوف وسط الميدان تارة ، وعلى باب الست تارة أخرى ، فإذا ببعض الزائرين يدسون فى يده ما تجود به نفوسهم ، إذ حسبوه شحاذا يتعفف عن السؤال ، والعجيب أن أبا خليل ربى له بعد قليل طائفة من الزبائن تخلص له ، وتبحث عنه ، حتى تعطيه ما فيه القسمة . . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولا طبائع الناس . .

وذات يوم مشرق صاف ، وبرهومة فى مكانه المعهود ، إذ دوّت بالقرب منه صرخة عالية بالميدان كله : «حى ! قيوم !» وتجمع الناس حول المجذوب الذى صرعه الوجد ، ووقفت إحدى لابسات الملس الأسود ، والمدا الأصفر وعقد الكهرمان الغليظ ، واندفعت تزغرد ،واستفاق

المصروع ولكن فمه مطبق لا ينبس ببنت شفة ، وعيناه المكحلتان المصابتان بالحول تحملقان فى وجوه المجتمعين حوله وقد أغرورقت فيهما الدموع ، ثم رفع كفين ملأتهما خواتم زرق وحمر ومسح وجهه وتهيأ لجمع النقود . .

ولما سمع أبو خليل فى الموعد عينه تلك الصرخة ذاتها فى اليوم الثانى والثالث ترك مكانه والتفت الى المسجد وهو يتمتم .

ـ يا أم العواجز ! مدد . .

كان قد ملّ الحياة ، وركبه الإعياء والضعف ، وزادت سحابات عينيه وانحنى ظهره . . واتجه بخطوات متثاقلة الى مقام أم العواجز ، حوله صفوف من الشحاذين قد جلسوا القرفصاء – حتى تخالهم هكذا خلقوا – وأسندوا ظهورهم إلى جواره ، يحيطون به إحاطة القمل بقبة الفقير هيهات أن يجد له مكانا بالدرجة الأولى بجوار الباب ، فتركه ودار حول المسجد حتى وصل إلى الميضأة وجلس على بابها ، فالتفت إليه من يسبقه فى الأقدمية ووجه إليه نظرة نكراء ، فلا يكره الشحاذ الا شحاذاً مثله .

وهناك تركت أبا خليل ونفضت منه اليدين ، فقد أصبح من أهل دنيانا ، فى دنيا لا مخرج لها ، بل لها باب واحد للدخول كتب فوقه «باب الوداع !».

(مجلة « الكاتب المصرى » ، العدد ٢٠ ، مايو ١٩٤٧ ، ص ٦٨٣ – ٦٩٠)

مرآة بغير زجاج

كانت الشمس مشمرة عن ساعديها قد غممها العرق وهى منهمكة فى صب لهيبها على شارع بولاق فى أحد أيام شهر أغسطس الماضى . لم ينج مخلوق من عذابها :

بدت قطر الترام فى مسيرها كأنها تلهث ، وفغرت القضبان فاها متشنجة من شدة الظمأ ، ولو استطاع الطريق لتقلب ظهراً لبطن وهو يتقل فى أتون لايرحم ، فى عيون خيول الجر المنهكة استجارة ، ولا مجير ! وفى ضمير قلبها اختلط اليأس بالذل ، وأخذ الأشجار ربو خانق ، وتوقدت الألوان كلها كأنما ينفخ عليها محموم ، وانقلب الهواء المرح الرقيق بطبعه إلى صحراء جرداء ، بطنها السحيق كظهرها الملتهب ، تشقه الأنوف كأنها معاول تنقب عبثا عن نسمة مخبوءة ، وكأن الأرض قد طاح رأسها وفقدت مستواها ، فهى قد هبطت درجة أو علت درجة ، نحولاً أو ورماً .

كل نبات وحيوان وجماد قد أسلم نفسه لربه – على مابه من اللغوب

والضنك والعذاب والاستجارة والتململ - أطرقت كلها بـرؤوسها وشملها جو من التسليم والإذعان ، كأنها تقول : من تمام الإيمـان ترك مشيئة الله تفعل بنا وبغيرنا ماشاء الله ، كلها أسلم وجهه الا الانسان ، فإنه هو وحده الغشوم المتعالى ، فى هذا القيظ لم يخل الشارع من المارة ، ولئن كان بعضهم قد خـرج فى طلب الرزق ، فـإن أغلبهم قد خـرجوا يتسكعون ، حريق الشمس عندهم أهون من مـرارة الضجر والسـأم ، وشعـرت قلوبهم الجاحدة بأنهم موضع ريبـة لاتخفى على أحد ، فهم يتهربون من العيون ، تكاد أجسامهم تحتك بالجدران ، بل ترى بعضهم يتهرب من بعض ، فأنت إذا عـاشرت من يقتـرف مثل جـرمك الـذى تقترفه ، لم يقل احتقارك لطينتك ، بل يزيد ، جمع خليط من القبعـات والطرابيش والعمائم والرؤوس العارية ، تنعقد وتنفك كالجراثيم تحت المجهر . الهرب . . الهرب من دوار يبتليك به شم عرقهم ، فرائحة زحام الأبدان البشرية هى سيدة كل ما هو عفن منتن .

لاأدرى لماذا استلفتت نظرى هامة عارية من بينهم ، رأيتها تسير على غير هدى ، فهى تمشى قليلا ، ثم تنكص راجعة ، تنتقل من رصيف إلى رصيف ، ثم تعود الى حيث كانت ، لغير سبب ظاهر ، لها وقفات تطول وتقصر ، تارة منكسة ، وتارة مرفوعـة ، وأخرى متلفتـة حولهـا أو نحو مواطىء الأقدام ، كأنها هى وحدها الطافية فوق تيار كل الرؤوس ، فلما دنوت منها رأيت شعرا لاهو بالناعم ولا بالخشن ، لم ينبت بها على شكل يلائمها ، بل كأنما هو حفنة من عكارة صبت على هذا الرأس صبا ، ولما رأيت الوجه تعلوه قترة وغبرة ، قد مسحت على تقاطيعه يد المحل تنفث السموم الحارقة ، وتمص ينابيع الحياة شيئا فشيئا كدود العلق ، أشحت

بوجهى جزعا واشفاقا واستعذت بالله ، ثم عدت أبحث عنه ، أريد أن أقول له شيئا ، فإذا به يدلف إلى مدخل الممر التجارى ويغيب عن ناظرى فى زحمته .

٢

ما هذه العين التى تلاحقنى منذ وعيت ، مالى أجدها حتى فى هذا اليوم القائظ ؛ وفى هذا الشارع الذى حسبت نفسى سأضيع فيه فلايتنبه الى أحد ؟ لقد خليت لها الدار وفررت من وجهها فإذا هى ورائى ، ماذا تريد منى ؟

فليتصور من شاء منكم أنه فى ترام أو قطار أو جالس على مقهى ، فإذا بإنسان غريب يحدق فيه ، يثبت نظراته عليه ، لايتحول عنه ، أى ضيق يتملكه ؟ وأى تململ يكهرب أعصابه وكأن قوة خفية لاتقاوم تدفعه رويدا رويدا الى حافة هاوية سحيقة . إن النظارة المتفرجين فى «السيرك» يحذرون أن يديموا النظر الى البهلوان فى لعبته الخطرة ، لاجزعا من أنفسهم ، بل يخافون عليه من نظراتهم ، فهى كفيلة بأن تصرعه . فماذا أفعل أنا ، وهذه العين تلاحقنى فى نهارى وليلى ، فى أكلى وشربى ، وإذا توهمت أننى غافلتها ونجوت منها ، شعرت بها وراء ظهرى تترصدنى .

ولكل امرىء منا خزانة مقفلة يستودعها شيئا مجهولا لاندريه : أهى السريرة ؟ أهى الشخصية ؟ أهى نبراس الذهن ؟ (والسريرة والشخصية والذهن ، كلمات مخترعة لاتدل على شىء !) أم تراها هى الآمال الطوال

والعراض نخشى عليها سخريةَ الناس ، أو نستر فيها القروح والعاهات والمخازى ؟ ونحن نجلل هذه الخزانة بالحلل ، والثياب ، ونصد عنها الفضول بابتسامات مزورة ، أو بنظرات كاذبة ، أو بكلام نموه به عنها تمويها ، فى هذه الخزانة تمثل «لعبة استغماية» لاتنتهى بين الفرد والجماعة ، إننا نخفى مفتاحها حتى عن أحلامنا ، وما نترسمه منها إن هو الا ظن وحدس وتخمين ، أو تفسير كتفسير الأكمه للمرئيات ، أو مجرد قول كقول الشراح لنص فى علم الكلام ، ثم تنزل هذه الخزانة معنا - وهى مقفلة - الى قبورنا ، ماسر هذا الذى يحدث لو حاول محاول أن يهتك حجابها بنظرة نفاذة قد تفلح وقد لاتفلح ؟ وما شعور صاحبها ؟ هو نوع من الانهدام أو التمزق أو الانفجار العاصف ، أو الفرار والرجوع القهقرى إلى المهد والاحتماء بصدر الأم ، يحدث هذا إذا ماسقط عليها أول شعاع من الضوء .

لقد نزعت هذه النظرة ملابسى وجلدى ولحمى ، وقفقفت عظامى ، وتركتنى أشلاء متناثرة فى لون الهواء وقوامه ، فماذا بقى منى ؟ كأنى بها مسلطة على لمحقى ، لكى يحل آخر محلى فى هذه الدنيا ، من جرائها ضاع علىَّ الزمن وذهبت قيمته ، وفسد اتصاله وترتيبه ، واختلط علىَّ أمسى وغدى ، وهذا الحاضر الذى أطقنا بفضله أن نماشى الكون ويماشينا أصبح كالساعة اذا تعطلت حركتها ، تشير إلى رقم لاتدرى أفى كذبه بشاعة أم بلاهة . . لقد فقدت من أجلها كل ما أملك ، بل أصبحت لا أستطيع أن أملك شيئا وأنا لا أملك نفسى .

كل انسان يمتطى صهوة حياته ليشق بها العباب ، أما أنا فالسوط فى يدى والمهماز فى قدمى ، وأنا مترجل فى الحلبة أتلفت حولى والجياد تمر فى

مواكبها لاتنقطع ، تاركتى فى رعب من أن أقع تحت سنابكها ، حتى الجياد التى أراها تكبو وتعثر ، تبعث حسدى لراكبيها فهم وإن لم تبعد بهم نهايتهم ، إلا أنها خاتمة شوط ، طال أو قصر ، ويحسب أحدهم أنه كان وصلا لما بين مبدأو نهاية ، وصل شىء بشىء ، فأصبح له ولها معنى مفهوم ، فهو حادث مخلوق جرت عليه أحكام البقاء والفناء ، ولكن ليس أدعى لسخرية والهزء من منظر هذا المترجل ، وقد ارتدى ملابس الركوب وهو يمشى وسط معمعة الخيل . .

كنت أصف نفسى كأننى أصف شخصا غريبا فأقول عنه : عمره المملوك له حلالا ، لا يتأتى له أن يقبضه الا نفاية أيام منتزعة من الحياة ، بالسرقة والاختلاس ، بالمكر والحيلة (كما تلقط الدجاجة اللصة حبة الأذرة ، موهوبة من فورها للفناء ، مدفوعة إليه مقدما ، كرها لا كرما) ومن ثم اختلف شعوره بالوجود عن سائر الناس : الموت عندهم عدو ثابت مترصد وراء أكمة نكرة فى الطريق المنحدر ، والحياة الغافلة هى التى تسعى إليه ، بخطى عليها وهم الحرية ، ولولا أكلها الطريق لما أهلكتها التخمة ، أما عنده فالحياة مسخ مقعد مشلول ، لا يريم عن مكانه ، والموت هو الذى يزحف عليها ، رأى العين ، بخطى ثابتة أكيدة ، يدنو منه شيئا فشيئا شبحه المتطاول ، كأنه فى إطباقه هب السموم . .

٣

لقد بحثت عبثا عن النجاة ـ فى المساجد ، بل فيها وفى المعابد لا يهمنى لأى دين أقيمت ، واتصلت روحى بكل ما عبده الانسان قديما من

الاصنام . . واحتملت دمامتها المراد بها إرهاب الحمقى وقطع اللجاجة ، فإن سحرها وحده كان مطلبى ، ثم قلت لأهبن قلبى للطبيعة وأسرارها ، لعلى أجد فيها بلسما يشفينى ، فسهرت تحت السماء أتطلع الى أفلاك الكواكب ، وطال وقوفى أمام البحر والصحراء ، وجعلت نفسى تنساب مع الوديان والأنهار ، ورقدت فى الغابات أتشمم أعشابها البرية ، وأترك لكل ما هب وطار من الهوام أن تغدو وتروح كما تشاء من فوقى ومن حولى .

تنقلت بين الخمر والتصوف ، وبحثت عن المشايخ الصالحين . . ولم أترك قارىء بخت أو حاسب نجم،وألححت على كل من عرفته كى يدلنى على قطب هذا الزمان . . فنظرت إلى وجه هذا القبطان التركى المتقاعد الذى يرطن بالعربية ، وإلى هذا الأفندى بالنهار المتجلبب بالليل حوله البكوات والباشوات يحدثهم فيكثر عن كرامات قطه ، وإلى هذا السيد الصموت المعمم ، يقترن اسمه باسم أحد الأمراء ، ويحكم مديرية بأكملها . . وإلى هذا المهندس العالم الذى لا يريد أن يرى الكتاب المنزل ، وقد مضت عليه القرون ، وتعهده آلاف من قبله ، الا كصبى ضائع فى زحمة الطريق ، فيلتقطه هو دون سائر الناس ، ويحضنه ، ويطلق عليه ما شاء من الأسماء ، ويلبسه ما شاء من الثياب ، ويأبى كل الإباء ـ أهى أنانية الحب أم غاية الغرور ؟ـ أن يسأله سؤ الا واحدا من ماضى حياته . . هذا رجل إن لم يكن عقيما قد خاب أمله فى أبنائه . . عرفت هؤلاء وغيرهم ، فلم أجد عند أحد منهم طلبتى ، غرقت فى الموسيقى فطفوت ، كل تمثال أو صورة لفنان لمت أمام ناظرى لمعة خاطفة ثم انطفأت . . حتى الحب ، جاءنى بعد لأى ، ومن حيث لا أحتسب ، ففررت منه فرار السليم من

الأجرب ، إذ كنت لاأملك نفسى ، وتعجز روحى عن تصور الدوام كما تتصور الفناء ، وكل ما يعين على البقاء هو عندى عبء ثقيل ، كلما تعلقت عيني بشيء ونظرت اليه فى هوس ، لا تنفك تبحث عن هذا المجهول الذى يسمّرها تارة ويزيغ بها تارة أخرى . .

وما هزنى إلا أذان الفجر فى بعض الليالى ، ثم لم أتقدم بعده خطوة ، لا أريد أن أجعله الدليل على أننى لا أزال أحيا ، وأنى لا أزال أشعر ، بل أجعله مقياسا لكل ما فقدته من جميل ، فما يزيدنى إلا لوعة وحسرة ، لقد زرت مستشفيات السل فى مراحله الأخيرة ، ومضى عليّ زمن خالطت فيه المجانين ، وتصيدت زمانا نفايات البشر لعلى أجد فى قلوبهم الممزقة مرآة أرى فيها وجهى !

٤

كأنى بصاحبنا قد أزمع السفر ، أم تراه لا يزال يتسكع ؟ ها هو يقف فى الممر التجارى أمام متجر للحقائب يتأملها ، ويتحسس ـ كالأعمش ـ واحدة بعد أخرى ، وصاحب المتجر مشغول عنه فى بعض شأنه ، فمن بين مائة متفرج يفوز بمشتر واحد ، واختار صاحبنا حقيبة والتفت الى البائع يقول له :

- بكم هذه ؟

التفت إليه البائع وألقى عليه نظرة سريعة ثم انصرف عنه ولم يجبه . بعد قليل كرر صاحبنا على البائع سؤاله :

- أسألك ، كم ثمن هذه الحقيبة ؟

وتململ صاحبنا وقد أخذته الحيرة والقلق ، أبلغ به الحال أن يتوهم أنه يتكلم وهو لم ينبس بحرف ؟ أم صوته غير مسموع ؟ بل ـ فليقلها صريحة ! أهو شيء غير موجود ؟ ثم عاد يقول لنفسه : «إنها أوهام . ولكن لماذا ـ على الأقل ـ لا يعامله الناس كما يعاملون سائر الناس ؟ ولماذا لا يحفلون به في أغلب الأوقات ؟ فهذا البائع لا يرد عليه هو أيضا .

ومن عادته في مثل هذه المواقف أن يتقبل الهزيمة وينصرف ، ولكنه تشجع هذه المرة ـ ولا يدرى لماذا ـ والتفت الى البائع محتدا يقول :

ـ ألا تسمعني ؟ أنا أكلمك . اسألك بكم تبيع هذه الحقيبة ؟

وما كان أشد دهشته وعجبه حين رأى البائع يقبل عليه كأنه يعرفه منذ زمن بعيد ، ويقول له ضاحكا :

– انصرف ! انصرف ! ليس هذا وقت مزاح . .

رباه ! ما معنى هذا كله ؟ لم تخصني بهذا العذاب كله ؟

شق أكوام الحقائب واقترب من البائع يكاد يصرخ في وجهه :

– ما معنى هذا ؟ كررت عليك سؤالا واحدا ثلاث مرات وأنت لا تجيبني !

نظر اليه البائع مدققا ، ثم ضرب جبهته ببطن راحته كأنما استفاق من حلم أو رأى أعجوبة ، وتأمله مرة أخرى برهة طويلة ثم قال :

– ألست فؤاد فهمي ؟

ولما رآه صامتا مقطبا استطرد يقول :

– حسبتك إياه ، وهو صديق لي ، ولي العذر ، فأنت تشبهه . . إن العين الفاحصة لا تستطيع أن تفرق بينكما ، ومن دأب صديقي هذا أن

يمزح بى ويعابثنى ، فلهذا فعلت معك ما فعلت ، لا تؤاخذنى .. ماذا تطلب ؟ أنا تحت أمرك .

سأله ضاحكا متلعثما :

- ومن يكون فؤاد فهمى هذا ؟

- أراك لا تعرفه ، هو مصور فوتوغرافى فى شارع الفجالة .

ثم تحول عنه وهو يقول كأنما يحدث نفسه .

- كم فى هذه الدنيا من غرائب ، من يظن أن اثنين من الناس يبلغ التشابه بينهما هذا المبلغ ؟ هذه أول مرة فى حياتى أصادف هذا الشبه المطابق .

والتفت ، فاذا صاحبنا قد غاب عن بصره ، فر مسرعا ، تنفض بدنه رعشة ، وتغلى فى جمجمته أفكار عجيبة متلاحقة يأبى تصديقها ، ولكن هذا الخبر المفاجىء يسلكها جميعا فى نظام واحد ، فإذا هى تبدو كالبديهيات التى تظل مبهمة دهرا طويلا ، فاذا أسفرت ووضحت لم يكن ما تبعثه من رضا الاطمئنان لها بأقل من الدهشة للذى كان من الغفلة عنها فيما مضى .

٥

لقد عرفت !! إذن فهناك آخر فى هذه الدنيا - حى يسعى - له ولى صورة واحدة ، فلمن منا تكون الصورة ؟ لى أم له ؟ كل شىء يقبل القسمة إلا هذه الصورة التى برأنا الله عليها لتميزنا وحدها عن الخلق كله ، وترسم شخصيتنا وحياتنا ومآلنا ، بل هى وحدها كل وجودنا ، ولو يكرر ال (أنا) لما بقى أحد ، ولعادت ذرات الموجودات تندمج فى المحيط

المجهول الذى فصلت عنه ، كما تعود قطرات المطر الى أبيها البحر ، فما تفسير هذه المشكلة التى وقعت فيها ؟ هل جاء جسدان إلى هذا العالم فى وقت واحد ـ وأنا أظن لشدة الشبه بيننا أن سنى كسنه ـ ثم جاءت الروح المختارة لجسد معين ، على صورة معينة ، فحاربت بين هذا الازدواج فى الشبه ، فتوزعت بينى وبينه ، بل إنى أومن الآن أن القسمة لم تكن عادلة ، وأننى خرجت منها بقسط ضئيل ، وفاز الآخر بأكبر نصيب .

كلا ! كلا ! بل لم لا أقول إن روحى ضلت طريقها إلىّ وسلكت سبيلها إلى جسده ، فأصبح يعيش وله روحان ، وأنا أعيش مفقود الروح . وإذن فهذه هى العين التى أجدها ترصدنى وتلاحقنى منذ وعيت ، لقد وضح الآن سر هذا المجهول الذى كان يجذبنى إليه ، وأنا لا أدرى الى أين أسير ، هذا سر ما أشعر به ، وهذا تفسير ضعف يدى عن الامتلاك ، وعجز روحى عن اليقظة ، بل هذه علة انزلاق المعتقدات والمشاعر المكتسبة على روحى ، كما يتزلق الماء على الصخر الأملس .

هناك إذن وجه سوف أرى فيه ـ فى النهاية ـ وجهى ، كأنه يبدو لى فى مرآة بغير زجاج ، وقد ظللت طول عمرى أتجنبه وأنفر منه ، ولا أصدق به ، لعلمى أنه ليس لى . ما جلست قط إلى حلاق إلا متململا من مرآته ، أغض الطرف دونها ، وفى المرات القليلة التى أخذت لى فيها صورة فوتوغرافية ، كنت أجزم ـ حين يدفعها إلىّ المصور ـ أنه خلط بينى وبين زبون آخر فأنكرها وأصر على أنها ليست لى ، ولا تستقر معرفتى بها إلا بعد لأى وطول تأمل ، لا مؤمنا بها ، بل أحدث نفسى :

«هكذا يرانى الناس والعدسة ، أما أنا فشىء آخر .»

وما من مرة وقفت فيها عند الخياط بين المرايا الثلاث ، إلا تأملت طويلا هذا الشبح يبدو عن يمين وعن يسار ومن خلف ، فلا أصدق أنى أنا هو ، ثم أكف عن النداء والمعارضة ، تاركا للخياط والمرآة أوهامها . .

إذن فسأرى يوما ما مغتصب روحى . . سأرى وجهى !

٦

لم يبق لصاحبنا هم إلا أن يقابل هذا المجهول المترصد له ، والغريب أن اضطرابه عند انصرافه من دكان الحقائب لم يُعمِّر طويلا وورثه هدوء يشبه السكون المنذر بالعواصف .

سار فى شارع الفجالة من أوله ، متلفتا الى جانبيه ، وبعد قليل رأى لافتة سوداء حال لونها تتدلى من نافذة الطابق الأعلى من منزل قديم متداع ، وقد كُتب عليها «فؤاد فهمى ، مصور فوتوغرافى» .

وكان صاحبنا يخشى ، إذا ما وصل إلى الحى الذى يعيش فيه غريمه أن يختلط أمره على أهل هذا الحى ، فيحسبوه جارهم ويحدثوه ، فلا يستطيع جوابا ، ويصبح الشبه موضع ملاحظة وداعى تندر .

وتلبث برهة - شأن المقدم على أمر ذى خطر - ثم انطلق إلى باب الدار ، فوجد أمامه سلما خشبيا قديما أثريا ، فعلا درجاته مسرعا يكاد ينكفىء ، حتى بلغ الدور الأعلى ، ووقف لحظة يسترجع نظام تنفسه ، ورأى باب الشقة مفتوحا فدخلها ، فلم يجد فى غرفة الانتظار أحدا ،

تلفتت إليه من على الجدران صفوف من العيون ، كرسوم مقابر الفراعنة ، تسأله : من أنت ؟

سمع صوتا ، خيل إليه معه أنه يكلم نفسه بالتليفون ، يقول له :

- استرح عندك قليلا إن شئت ، وإن شئت فتعال إلى هنا ، ففى يدى شغل . .

اتجه نحو الصوت ، فوجد نفسة فى دهليز مظلم فى وسطه ستارة متدلية تحجب حجرة التحميض ، فأزاحها بيده ، ووقف وراءها صامتا ، ولمح فى الظلام شبحا يتطلع فى لوح زجاجى تحت ضوء أحمر . . يا لله أما أرى وجهى أول ما أراه إلا فى الظلام ؟

سأله الصوت نفسه :

- أبونيه أم كرت بوستال ؟ اتبعنى فقد فرغت من عملى . .

ومشى أمامه إلى حجرة الانتظار وجلس أمام مكتبه ، وتناول بقية سيجار صلب غليظ ، اسوداده الفج القبيح على نقيض وقار لون الرماد المتماسك عند طرفه ، ووضع السيجار فى فمه ، لا يعنى بطرح الرماد ، ورفع بصره إلى زائره يقول له :

- ماذا تريد ؟

لم تبد فى نظرته أقل دهشة ، كل همه أن يقيس طوله وعرضه ، وينظر وضع رأسه كيف يكون أمام العدسة . .

وضع صاحبنا كفيه فوق المكتب وانحنى حتى أصبح وجهه مقابل وجه المصور ، وحدق فيه طويلا ، ثم قال له فى صوت خافت متمهل :

- ألا تعرفنى ؟ ألا تتطرنى ؟

فأجابه بضحكة عالية :

- هو أنت ؟! لقد حدثنى عنك صديقى بائع الحقائب فى الممر التجارى ، وبينى وبينه مزاح لا ينقطع ، لقد ضحكت لخبره طويلا ولا أزال أضحك . . ما كنت أحسب أنك ستهتم بى أو تأتى لتزورنى ، فالحمد لله إذ فعلت ، أنا والله سعيد بمعرفتك ، وأغلب الظن أن تنشأ بيننا صداقة متينة .

فقال : قف أمامى ، هذه والله أبدع المفارقات التى تضحك الثكالى

وأخذ فؤاد يقهقه ملء شدقيه ، ويجوب الحجرة يضرب كفا بكف وهو يكاد يختنق من شدة الضحك .

ولما رأى صاحبنا يقف أمامه متجهم الوجه مقطبه ، التفت إليه يقول :

- مالك تحمل هموم الدنيا كلها على رأسك ؟ ماذا بك ؟

فأجابه :

- إن شئت أن تقوم الصداقة بيننا فاقبل أن يكون لقاؤنا دائما على انفراد ، فإننى أود أولا أن أعرفك وآلفك .

فأجابه : لك علىَّ ذلك ، فلنستفتح الصداقة بكأس من العرق الزحلاوى ، فهذا أفضل مشروب فى فصل الصيف ، أم تُراك لا تشرب إلا الويسكى كالأعيان أو الشبان الواقعين فى بلاء التقليد . .

ومضى شهر . .

٧

أي مخلوق هذا ؟ إنه رجل يأكل أكْل اثنين ويشرب من الخمر شرب ثلاثة !! وأين منه «دون جوان» ؟ له في كل يوم خليلة أو خليل . لا يهمه من أى إناء شرب ، والعجيب أن كل خليلة منصرفة تصبح قوّادة له ، فتأتى له هى ذاتها بخليلة جديدة ، وهكذا دواليك .

إنه لا ينام إلا غراراً . . ولا يكف عن الحركة والضحك والمزاح والغناء ، لم أره قط يحمل هم أم مريضة أو أخ طالح ، أو صديق تعسر . .

ماخبره ؟ إنه حين يفتح النافذة فى الصباح ويستنشق الهواء بصدره العريض ، أحسبه سيبلع الدنيا كلها بما فيها ، بل إنه لا يعيش حياته وحدها ، فهو يضيف إليها هامشاً كبيراً قد يساويها طولا وعرضاً ، يلتمسه فى القمار ، وهو بعد حر طليق لا يستعبده هذا الطاغية الذى لا يصافحه أحد إلا أصبح من أرقائه . . هو يراهن على الخيل ، ويشترى ورق اليانصيب ، ويلعب البوكر ، والبكاراه ، والشمسان دى فير ، والروليت . . حيثما وجدها ، بل رأيته يتريث ساعات طويلة فى الأزقة وحدائق الملاهى أمام ألعاب القمار التى يعرضها أصحابها على الأغرار والمتسكعين من لابسى الجلاليب والصبيان . .

وقد بلغ به الهوس أنه لا يمر أمام بائع كنافة بالقمار على عربة يد إلا وقف عنده ، ودفع القرش ، وأدار الذراع ليرى على أى رقم يقف ، وكم إصبع من الكنافة يفوز به . . وقد لا يأكلها . . لا يزهى بمكسب ولا يأبه

لخسارة ، كأنما النقود فى يده عجلة دائرة لا يعرف أولها من آخرها .

وقد أصبحت أشك فى أمره ، إذ لا أظن أن مكسبه من صنعته يكفيه لكل ما يفعل ، ورابنى منه أخلاط من الناس يترددون على مسكنه ، ويدور بينهم همس طويل ، وتتبادل الأيدى أوراقا مطوية ، وأغلب الظن أنه يشارك فى تزييف أوراق النقد .

ماطيته ؟ لم أره يقرأ كتاباً أو صحيفة ، ولكن له نظرة نفاذه وكلمة ساحرة ، لا يلبث القادم عليه حتى يقع بين يديه ، وينكشف له خبره بخيره وشره ، وهو فى أوقات نشوته وساعات تعجبه ، يكرر كلمة واحدة ، ينطق بها كالخطيب ملوحاً بيديه ، وهو يذرع الحجرة جيئة وذهابا !

«دنيا ! دنيا !» وما أحسب كلمة «الآخرة» جرت قط على لسانه .

ما جِبِلّته ؟ يقسم لى أننى أصبحت صديقه العزيز ، ولكنى لا أشك أننى لو هلكت اليوم لما تحركت شعرة فى رأسه ، ولا لتحم من فوره بين يديه ذلك الخرق الذى يحدثه موتى فى نسيج حياته . .

ولكن ما أشد غفلتى ؛ لم أقول : ماسره ؟ ما خبره ؟ ماطيته ؟ ما جبلته ؟ والسر مفهوم والسبب واضح وضوح الشمس ، إنه يأكل حياتى أكلا ، وهذا هو سرقوته وسر إغمائى ، وقد أنطقه الحق ذات يوم إذ قال لى وهو يزجرنى على انطوائى !

– تأمل نفسك وتأملنى . . فإننى منذ عرفتك قد زاد وزنى وزاد نحولك ، فاحترس وإلا بلعتك وفنيت فىّ . .

ومضى أسبوع . .

٨

لم أنم إلا غراراً ، إن انجذابي لهذا الرجل الغريب لا يصارعه إلا نفوري منه . وإذا الاعجاب بشخص أو بشيء اتصل في القمة بأقصى الحنق عليه ، والرغبة الملحه في هدمه لفرط كماله ، وإن كثرة الناس لتعمل جاهدة في إحداث المساواة – من حيث القيم الذهنية والأخلاقية – بين البشر كافة ، حتى لا يكون هناك عال ومنخفض ، ورفيع ودنيء ، هذا مبعث الثورات الجامحة والمعاول الهدامة ، والتشنيع والإساءة والانتقاص ، كلها تنبثق من القلوب كانفجار القوى الطبيعية ، لا سبيل إلى درئها أو مقاومتها ، ولا شيء يفقد السهل اتزانه وهدوءه كرؤ ية رأس جبل شاهق ، فكيف بي وأنا أرى هذا الرجل يحتل مكاني ، وأرى كل حجر يضعه في بناء حياته وغرائزه ، ينقص مني ، فكلما علا زادني هبوطاً .

وقد بلغ من توقد غيظي عليه أن لو عرض عليّ أن نندمج في الخلق معا ، كما نحن مندمجان في الخلقة بالشبه ، ثم ننقسم بعد ذلك نصفين متساويين لما قبلت ، لاشيء يرضيني ، بل لاشيء يشفيني إلا هدمه بكلمة واحدة لا رجعة فيها .

إن كل القوانين تعترف بحق الدفاع عن النفس ، وأنا إنما أدافع عن روحي ووجودي وكياني . فلي كل الحق في أن أزيله من طريقي وأسترد حياتي وأنا أعلم أن الفرصة ستواتيني يوماً ما ، دون أن يلحقني أقل أذى . . ولذلك سأظل متربصا به ، كما عاش طول حياته متربصاً بي .

٩

وشاءت الأقدار أن تهيء خاتمة هذه المأساة التى شهدت مولدها فى شارع بولاق فى يوم قائظ من شهر أغسطس الماضى ، وكان الصيف قد ولّى وأعقبه الخريف ، وهو ربيع بلادنا ، انقضت نشوة النيل فى ضمته لمصر من فرعها إلى قدمها ، وتخلت ذراعاه عن الحياض ، ورقد مستكينا فى مجراه ، وكانت السماء صلعاء فى الصيف فأخذت تتزين بثيابها الحمر عند كل غروب شمس ، وانقلب الطين الرايب إلى بساط سندسى ، ما أحلى مذاقه بين أضراس الجاموس النحيل ، إنه يعيد الحركة إلى فكيها المتراوحين بعد أن صدئا على خشونة الكسب . ما أحلى الاطمئنان الذى يبعثه فى ريفنا منظر الجاموسة وهى راقدة فى حقل البرسيم ضابرة خاشعة . . ما أطهر براءة خشمها وأذنيها الورديتين ، وأصبحت كل نخلة نافورة من البهجة والدلال ، مع بقائها علامة التوحيد فى بلادنا . . للأرض فرحة علوية تهز أعطافها ، وللسماء تدان إليها فهى حانية عليها بحواش مزخرفة من طنب السحاب : هذه وليمة سيد مضياف يقيم خوانه على قارعة الطريق ، يدعو كل من مر ليشاركه فى أنسه ، لا يفرز البَشِم من الجائع ، ولا يفرق بين السعيد والشقى .

وصاحبنا تائه فى غمرات سود تتلوى فيها الأفاعى ويسطع منها بخار منتن كأنه نار محرقة ، هى جرثومة كافة الأدواء والعلل وأصل كل بلاء ، لم يسعفه إلا ميكروب لا يراه المجهر ولا يمسكه أبخل المرشحات ، نفذ — وما يدرى أحد كيف نفذ — إلى جسد فؤاد فهمى فألقى به فى الفراش محموماً

فلما رآه صاحبنا مساء ذلك اليوم أدرك أن غريمه قد قطع إليه نصف الطريق وهو لا يدرى . وجده ملقى على فراشه فى حجرة نومه ، فى الشقة ذاتها ، ليس بجانبه أحد ، هذا هو مرض الجبابرة ! تأكله الحمى وعيناه متيقظتان ، كأنما يؤجج فيه المرض كل نهم للحياة ، فما كاد فؤاد يرى صاحبنا حتى أخذ يسخر به ويهاجمه :

- لو بك كان هذا المرض لا ستدعيت كل الأطباء ، والأصدقاء ، وكوّمت حولك الأدوية من كل لون ، ولو تجسّم لك المرض شخصاً لأشفقتَ عليه ، ونكصتَ عن مقارعته ، إنك تعجز عن عَرْك برغوث !! أما أنا فلا أتعاطى إلا الدواء المنوّم ، وسأتغلب على المرض وحدى ويقوتى .

رباه ! كيف يموت هذا الرجل ؟

نظر إليه صاحبنا طويلا ، وهزَّ رأسه ثم ابتسم له كأنما يقول :

- صبراً صبراً ، الآن وقعت فى يدى وسنحت الفرصة ، ولن أدعها تفر !

أخذ يشعر أنه قد بدأ يسترد سلطانه ، وتدب الحياة فى جسده ، وأنه قادر على أن يحرك غريمه كما يشاء ، فلم يندهش حين التفت إليه فؤاد وقال له :

- دعنى الآن فأنا أريد أن أخلو بنفسى ، ولكن أرجوك - قبل انصرافك - أن تذهب إلى المطبخ وتصب لى قليلا من الماء فى كوب تُقطرُ فيه عشر نقط من هذه الزجاجة .

سار فى الدهليز ، وفى قلبه هزيج الأغانى وترجيع الأناشيد . .

ثم عاد وناوله الكوب ، وظل واقفاً حتى شربه إلى نهايته .

نزل على الدرج خطوة خطوة ، معتدل القامه ، مرفوع الهامة ، مبسوط الصدر ، على شفتيه ابتسامة جذابة ! . .

(مجلة «الكتاب» ، يوليو ١٩٥٠ ، ص ص ٦٢٠ - ٦٣١)

احتجاج

١

- ثمانين قرش ، ثمانين قرش ، ماهم ؟ كويسين !
- مش كان يانينة متأجر بجنيه ؟
- يابنى راخر فضل فاضى شهر وزيادة ماحدش هَوّب عليه . .
- تصبر شوية . .
- يابنى يا محمود ، احييفى النهارده وموّتنى بكره .

ونفذت إرادة الست خيرية - كالعادة - ونزل محمود أفندى ومزّق بنفسه «دكان للايجار» كان كتبها بخط يده على ورقة كراس والصقها بالباب ، ثم سلّم المفتاح للأسطى حسن المنجد . . شاب يلبس جلبابا أبيض فوقه «زاكتة» ، وجهه أصفر ، وطربوشه مائل إلى ناحية .

وقف محمود يراقبه وهو يفتح الدكان ، ثم نظر لساعته ، الساعة السابعة ، ونظر للباب ، وصل لسمعه وقع أقدام تنزل من الدور الأعلى ، هذا هو ميعاد خروج حلمى أفندى زوج أخته زينات . .

وخرج حلمى من الباب وهو يزرر صديريته ، له نظارة غليظة فى إطار ذهبى تبدو من ورائها عيناه فى أقل من حجم الترمسة . . هو فى كل يوم مسرع ، ولكنه فى هذا الصباح تريث لحظة ليسأل من المستأجر الجديد ، ودخل الدكان وراء الأسطى حسن يقول :

– لما تفضى يا معلم عندنا شغلة بسيطة .

– من عينى . .

وهرول حلمى أفندى والمظلة تهتز على ذراعه . . يراقبه محمود وهو يضحك فى سره متعجباً . . ليس ضحكه من رغبة حلمى فى استغلال الأسطى حسن مجاناً ، بل من تسرعه وقلة صبره ، كأن الأسطى حسن من مستأجرى أملاك حضرته . .

فليستذوق – على الأقل – وينتظر ، لعل أصحاب البيت أنفسهم فى حاجة قبله للأسطى حسن .

نظرة أخرى للساعة . . الساعة السابعة والربع دق محمود الباب ونادى :

– ياسى فرج ، ياسى فرج . .

هذا زوج أخته الثانية نعمات ، كلاهما موظف فى وزارة الأشغال ، وهما يخرجان كل صباح معا ، نزل إليه شاب يلبس حذاء برقبة ، وصديرية ضاء على حلة كحلية . . له كرش تقيسه سلسلة ذهبية طويلة . . هادىء الخطوة ، بطىء الحركة . .



سار الابن مع زوج البنت جنبا لجنب . . لم يبق فى المنزل سوى الحريم و «زربة» عيال ، أولاد وبنات ، لهم ضوضاء وضجة وزعيق . . كلهم فى سن متقارب ، ولباس متشابه ، إخوة وأخوات وأولاد خالات وعمات . . تتردد فى هذا المنزل نداءات بأغلب أنواع القرابة والنسب . . هو منزل صغير لا شيء يميزه عن جيرانه ، لا يخطر ببال من يمر أمامه أنه بإزاء مثل رائع لتجدد الحياة وتعاقب السلالات . . هو منزل منتج ، عياله كثيرة متلاحقة ، أكبر هم أصحابه بالنهار ، وشغلهم الشاغل ، ومدار حديثهم : الأكل والشرب ، لا ينقطع تزاحمهم على المرحاض ، يختلط صوت تجشؤهم وفواقهم وخرائهم برائحة فسائهم . . أما بالليل ، عندما يغلق بابه وتقفل نوافذه فيهبط عليه سر من أسرار الوجود : سر غريب ، حسابه مئات الألوف والملايين ، لا بالاحاد والعشرات ، لا يقود حتى يبين ، بل يسوق ويظل مجهولا ، لا يتريث ، لا يلتفت للوراء ، لا تتقزز نفسه وقدماه لا تطآن إلا على أشلاء ، لا يستفيق لهذا السر إلا من عاشر النحل وأطل إليه فى إبان نشاطه وزحامه القاتل داخل الخلية . . فى الصيف الماضى ولدت زينات ، وفى الشتاء الذى يليه ولدت نعمات بنتين فى بطن ، ويتردد الآن فى المنزل بالليل والنهار عويل قيء فائقة ، زوج محمود ، فهى حبلى . . يقارب الحيوان لو خلى لنفسه بين موسم توالده وموسم اخضرار الأرض : الانتعاش واحد والعيد للجميع ، ولكن الإنسان يلد فى زمهرير الشتاء وحمارة القيظ وما بين الفصلين ، قد يقال إنه أضاع بهجة اللقاء مع الأرض حين تبعث من جديد فى أجمل زينه ، ولكن لا بأس ، إنه وحده سيد الأرض ، والسيد لا يأبه لأهواء عبيده . .

والست خيرية فى هذا المنزل بمثابة الملكة فى الخلية ، لا لأنها لولا بطنها

وحجرها لما قامت له قائمة ، بل لأنها روحه ومدبرته ، هى - كما يقول جيرانها - عمود البيت .

والست خيرية من أهالى القاهرة ، تزوجت مبكرة من ناظر زراعة مطربش ، عرّفها سكنى الأرياف ، ومنازل حقيرة متهدمة ، ومعيشة الفلاح تزامل فيها الجاموسة أصحاب البيت ، رأت معه فى حياته المتنقلة بلاداً عديدة ، إلى الآن لم تنس أسماءها وترتيبها لأنها خلّفت جزءاً من حشاشتها فى قرافة كل بلد ، ابن فوق رأس ابن ، عاش من حرسه الله ، ومات من انتهى أجله ، حتى السقط له اسم وذكرى . كم تعبت ! ولكنها صبرت مع زوجها ووفرت له قرشا على قرش وجنيها على جنيه إلى أن اشترى من أحد الوارثين خمسة أفدنة ضعيفة فى عزبة خورشيد ، والمنزل الذى أقام فيه بالبغالة حينما عاد إلى القاهرة يشتغل فى إحدى الدوائر ، ثم مات ، وخلّفها على يديها أولاد صغار ، ليست هى التى تتزوج من رجل يطمع فى حطامها ويشتت من حولها عيالها : رفرفت عليهم كالدجاجة تحتضن كتاكيتها تحت جناحيها إذا هبط الظلام . . ربتهم بأسنانها كما تطبق القطة فكيها - يالها من عضة فيها الرفق والرحمة والحنان ! - على جلد رقبة صغارها وتنقلهم من المخافة إلى الأمن . تربية ليس فيها تدليل ولا حق والع ، ولا عطف مضر . لا يزال بناتها يذكرن للآن كيف كانت تسرّح لهن شعورهن ، يد قوية تقبض على الضفيرة وتشد الرأس للوراء ، لها لكمة ترن على الظهر إذا زنت أو تململت . .

ويذكر محمود إلى اليوم قبضة هذه اليد على قفاه يوم الحمام . . قبضة تشل حركة رأسه ولا ترتخى ولو صرخ من رغوة الصابون تغشى عينيه وهو يحميها بقيمصه المتسخ ، يخلعه ويبقيه فى يديه مبللا .

تذهب للبلد وتلم الإيجار بالمعروف والمتلوف وتأتى بزكائب القمح وتعجنه وتلدّن الخبز ، وتستعين بإيجار الدكان على مصروف الخضرى والجزار . . لم يقل أحد عنها إنها بخيلة أو مقترة ، بل يقال عنها - على العكس - إنها سيدة عاقلة ، أينما وضعت يدها حلّت البركة ، من أمثالها العديدة التى يتناقلها عنها معارفها : «لا ترفص النعمة حتى لا ترفصك» - «كب الطبيخ البايت ورمى اللقم قلة بركة» - «القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود» - «اللى ياكل على ضرسه ينفع نفسه» - معتقدات ليست وليدة المناقشة والبحث والتجربة ، بل هى جزء من ديانة الست خيرية ، تؤمن بأنها من وحى حكمة إلهية ، لا جواب عليها إلا الإذعان والانصياع التام .

وتمكنت الست خيرية بفضل هذه المبادىء من الاستمرار فى تعليم محمود إلى أن نال البكالوريا ووظفته ، وزوجت بنتيها من رجال من طبقتها ، أمال رأيهم السكنى مجانا ، ثم زوجت ابنها محمود ودفعت مهره من فائض مرتبه ، الكل يسكن معها ، والكل تحت أمرها ، إن تلكأ واحد منهم ردته إلى الطريق المستقيم بمثل بارع . . فهى مشهورة بأنها خزانة أمثال ، معها لكل مناسبة مثل ، هذا بعض ما يحببها إلى جيرانها ويجعل حديثها حلوا شهيا ، ولكن لا يعلم أحد متى وأين ولا كيف جمعت هذه الأمثال كلها وحفظتها ، لا تخطىء موقعها من الكلام ، وإذا طلبت مثلا جاءها جريا طيعا . .

٢

الأسطى حسن لم يكذب الخبر ، وطلع فى صبيحه اليوم التالى إلى

الدور الأعلى ، تنحنح على السلم ، ولم ينتظر ، ثم خرجت إليه الست خيرية وعلى رأسها طرحتها البيضاء ، مد لها يده ، فسلمت عليه بيد تغطيها بطرف طرحتها ، فهى من مذهب أن الملامسة بين المحارم تنقض الوضوء ، ووقف الأسطى حسن أمامها خافض النظرة (ولد طيب مؤدب !) . ولكن هذا الاعتقاد لم يمنع الست خيرية من أن تنادى خادمتها بهية وتهمس لها وترسلها وراءه لتقف على يده إلى أن ينتهى من تصليح المقعد الطويل .. فى الحجرة كُتب وكراسى ، ولكن بهية جاءت للباب وجلست القرفصاء ، لها بين الحين والآخر سعال خافت ، لا من مرض ، بل وقفات تهدّىء بها تنفسها وتعيده إلى نظامه ، رأسها يتمايل وهى تنقله من الكتف اليمين إلى الكتف اليسار ، تعود نظرتها كل مرة وتستقر على الأسطى حسن ، نظرة خالية من الفهم والاهتمام والشخصية ، هى حركة مقلة من طبيعتها التحرك ، بهية متعبة ، والتعب هو المعول الوحيد الذى يستطيع أن يهدم - رغم جبروتها - أقوى العيون ، وأكثرها جاذبية وأشدها سحرا ، بعض العيون تظل ناطقة ، والجسم يحتضر ، وبعضها قد يرمد أو يختفى وراء نظارة سوداء ومع ذلك يحس بها وبإشعاعها ، هذه العيون ذاتها لا تقوى على التعب ، إذا لمسها غاض ملؤها وذبلت وضاعت .

ألف مرة فى اليوم تطلع بهية السلم وتنزل ، بهية ! أفندم ! حاضر ! بهية ! طيب ، أقعدى ! إنزلى ! اذهبى ! أنظرى ! طول عمرك خيبانة .. من الكبير والصغير ، فللكل حق عليها ، لوكان عود الكبريت فى متناول يد طالبه فإنه يناديها لتأتى له به .. فى عينيها وهى جالسة بجانب الباب صراع واضح يكاد يتكلم ، نظرة تتملص بجهد ، وعلى مهل ، رويدا رويدا ، من قبضة قاسية خانقة ، واستمر الصراع زمنا غير قصير ، ثم

استبانت النظرة قليلا قليلا ونطقت عينان صافيتان لون إنسانيهما كلون الكهرمان .

وكان الأسطى حسن قد زحزح المقعد من جوار الجدار ، ورقد تحته ، وبدأ يشد المسامير بكماشة ، ثم خرج ، وتريث ، وحك رأسه ، والتفت لبمبة يقول :

- ياست بمبة ، من فضلك وإحسانك ناوليني بق ميه . .

شرب الماء ، وتناولت الكوب منه ، ومع ذلك ظلت واقفة بجواره ، تملك انتباهها حركات الأسطى حسن ، وهو يقذف بحفنة من المسامير إلى فمه ، ثم يخرجها واحدا بعد واحد ، ويغرزها في جانب المقعد ويهوى عليها بالشاكوش . . منظر مسل . . يقول لها والمسامير حشو فمه في لهجة الأهتم :

- ما تستريحي ياست بمبه . .

فجلست بجواره ، كانت قد استراحت وانتظم تنفسها وتمتعت نظرتها بحريتها فعلقت بشعر الأسطى حسن وإنحناء كتفيه والخاتم في خنصر يده اليمنى ، ولاحظت اتساخ قبة جلبابه ، ونقصان زرار في قميصه ، وسألته بصوت رفيع سريع ، كأنها تكلم طفلا عوّدته التدليل . .

- مين بيغسلك هدومك ؟

- واحدة من الجيران . .

- ساكن فين ؟

- في المغربلين . .

- مش بعيد عليك ؟

- لا ، على رأى الفلاحين ، فركة كعب . .

أضحكتها إجابته ، لم تفتح فمها فبرزت ذقنها قليلا ، وضاقت عيناها فتجمد الجلد على صدغيها ، سأل الأسطى حسن نفسه ولماذا تضحك ؟، وتنقلت نظرته من شعرها الفاحم ، إلى حواجبها السود الغليظة تمتد قليلا على صدغيها ، من أذنها إلى ثدييها المتهدلين قليلا على بطنها ، تربطها بحزام هو ربطة عنق بالية ، على رأسها طرحة سوداء ابيضت وكثرت خروقها ، وجه ساذج نحيف محمر ، وجلد ترى خشونته ، وأيد مقلمه الأظافر (باين عليها من أهل الله !) لم تحد نظرتها عنه ، وتحملت فحصه غير قلقة ، تبتسم من نفسها لنفسها ، كأنها على وشك الضحك من جديد لو نطق بكلمة أخرى ، فضحكة بمبة سهلة الاستثارة ، تخرج من حلقها غير مسموعة الصوت ، ولكنها تستمر برهة كنغمة الوتر فى نهاية تذبذبه ، لم تضحك مرة بصوت مسموع ، ولا يعلم أحد هل هذا هو طبعها أم من تأثير تربيتها . .

وعت بمبة للدنيا فوجدت نفسها خادمة فى منزل الست دولت أم الست خيرية ، لا تعرف لها أبا ولا أما ، أسرتها أسياد ، أمها على قول الست دولت كانت خادمة أيضا ، تدل تقاطيع بمبه وسحنتها ولون عينيها وندرة اسمها فى مصر على أن دما غريبا يجرى أو يخالط الدم المصرى فى عروقها ، لعل أسرتها من منطقة المنصورة أو دمياط ، وخدمت بمبة الصبية سيدتها إلى أن ماتت فورثتها الست خيرية فيما ورثته عن أمها ، أخذتها معها للريف ، وكانت بمبة فتاة فى سن العاشرة ، خفيفة الحركة ، سهلة القيادة ، حضرت الست خيرية وهى تلد أولادها ، هزت لهم المهد ، وغسلت قماطهم ، وحملتهم على يديها وعلى كتفيها ، هى التى تخرج بهم للفسحة وتصب الماء

فى الحمام على أجسادهم العارية وعك الظهر والعجيزة ، ومر الوقت يجرى والشغل لا ينقطع ، وأغمضت بمبة عينيها وفتحتهما فإذا الفتاة الصغيرة امرأة فى سن الأربعين ، مقطوعة النفس ، لا تهمد من الصباح للمساء ، أمات التعب تفكيرها وحرمها النمو الروحى ، فهى جسم صحيح وروح أعلها الكُساح .

وبمبة رغم سنها لا تزال طفلة ، فى قلبها رهبة دائمة من الست خيرية . تضحك للتافه من الأمور ضحكتها الخافتة التى تغمض لها عينيها ، ثم تنسى ، وتجرى على العيال فى السلم ، وتضربهم ويضربونها ، وتبرز لهم لسانها ، وتأخذ من حلواهم وتقضم منها وتعيدها إليهم ، حتى النقود لا تعرف حسابها ، وتفهم المليم أكثر من فهمها للقرش ، لا تقطع فى شراء شىء من بائع متجول إلا إذا جاءت للست خيرية ويدها مطبقة بقوة على النقود وراجعت الحساب عليها ، فاصلت مرة بائعا وانتصرت عليه بمهارتها وحيلتها وأخذت منه خمس أقات بطاطا بأربعة قروش وكان يطلب فى الأقتين ثلاثة قروش تعريفة . . قالت لها الست خيرية «والنبى تتلهى على خيابتك . . دى خيبتك بالويبة !» .

يحبها الكل ، وهى تسير فى ذيلهم ، ولو سألتها لأجابتك انها تحب الجميع على السواء محبة واحدة ، وهى صادقة غير أنها تشعر نحو محمود بميل خاص ، ترمقه دائما بنظرات مملوءة محبة صادرة من القلب ، لو تأخر فى العشاء أبقت له خير ما فى الحلة من لحم ، ألأنه هو الابن الذكر الوحيد ؟ أليس هو سيد البيت ؟ أم لأن البنات يلازمنها فى خدمة الدار وينهرنها ويتسلطن عليها ولا تسلم طول النهار من لذعات لسانهن وشتائمهن مهما فعلت وقطعت نفسها أربع قطع ، والواقع أنها تحب محمودا ولا تدرى

لماذا ، حتى لو تجنى عليها وشتمها نفس الشتم ، إذ يكون فى غالب الأمر غاضبا أو متعجلا ، وليس شتمه صادرا من قلب أسود مملوء بالسخيمة يتلذذ من صب الإهانة البذيئة على رأسها كقلب أخواته البنات أو قلب زوجه ، قد يرجع السبب أيضا إلى أن محمود يحب دائما أن يمازحها ويعابثها ويتدلل عليها ، يسألها فى بعض الأحيان وهو راقد فى فراشه أن تدلك له ساقية وقدميه فتميل عليه فيداعبها ويضاحكها معيرا إياها برائحتها النتنة ، وقملها المتناثر وشعرها المتساقط فى الطبيخ . . منذ متى لم تستحم ؟ وهكذا وهكذا . . وربما زاد وعابثها معابثة مكشوفة . . تضحك مرة لكلامه وتتيه مرة أخرى كأنه طفل تريد أن تؤدبه وتدلله فى آن واحد . وهكذا يمضى نهارها ، وقد اعتادت الشتم وأصبحت لا تأبه له ، لا يتجهم وجهها إلا إذا جابهها أحد بقوله إنها ساذجة بلهاء ، تغتم لحظة ، ثم تنسى ، ويعود مرحها سريعا إذا تجمع حولها العيال ، والعجيب أنها لا تغضب لهذه التهمة إذا جاءتها من الست خيرية ، هى تلازمها صباح مساء ، ولا تفارقها ، حتى النوم ، تجىء تحت أقدامها وتجلس «تفقر» برأسها إلى أن تأمرها الست فتطلع إلى السطح لتنام على حصيرتها . . ليلة دخلة نعمات سهرت مع الست خيرية للصباح فى حجرة مجاورة ، وكانت هى أول من دخل على العروس فى الصباح وغيرت ملابسها وغسلت لها غسيلها ، وليلة دخلة (زينات) جمعت الست خيرية رأسها إلى رأس بمبة تغالب اللهفة ، النعاس فى عينيها ، ولكن الست لم تصبر ، فزينات آخر العنقود ، وقبل الفجر سمعت الأم حركة خفيفة فى حجرة العرس ، فسعلت ، فخرجت لها ابنتها وكانت بمبة هى التى تلقتها من على الباب وطبعت على خدها وفمها المنهك ثلاث قبلات تنهال من شفاه مفرطحة تلصق باللحم . .

وكانت بمبة تود أن تسهر بجانب حجرة محمود ليلة دخلته ولكن الست خيرية أرسلتها للسطح وهى تقول :

- دى أوعى منك ومنى . . دى تلعب بالبيضة والحجر .

ولما وصلت بمبة ليلتئذ لحصيرتها لم ترقد ، هى متعبة ولكن جسمها مشدود ، جاءت لسور السطح وارتكنت عليه فضغطت الركنة ثدييها على حافة الجدار ، ونسيت بمبة الزمن ومروره وهى منحنية نظرتها تائهة ، يد مجهولة تهصر قلبها ، ثم انتبهت فجأة وجسمها ينتفض . التفتت وراءها تقول :

- أعوذ بالله من كل شيطان .

وسارت مسرعة إلى فراشها .

٣

وتوثقت الألفة مع الزمن بين الأسطى وأصحاب البيت ، وكأنه هو الذى فتح له الباب وكشف له دخائل المنزل ، وشخصيته هى التى أكملت بقية الطريق ، إذا جلس العيال على باب الدكان لشم الهواء فهم فى أمن ، توصيه بمبة فى الصباح أن يستبضع لهم ما يحتاجون إليه من الخضار والفاكهة ، فيشترى من الباعة المتجولين خير ما لديهم بسعر بخس ، وقد لايكون لله شقة البطيخ التى ترسلها له الست خيرية مع بمبة عند الظهر فى بعض الأيام ، أو طبق الملوخية البائتة «فرديحى» بلا لحم ، أو قطعة الفطير «المشلتت» يوم وصول أحد أقرباء أزواج البنات من البلد ، واعتاد

أصحاب البيت على سماع خطوته وهو يدخل إلى الفناء ليملأ القلة أو يبول فى المرحاض ، وأصبح الأسطى حسن بعد قليل يعرف أسماء أقاربهم وصناعاتهم وأسماء المستأجرين ومشاكلهم ، بل يعرف كل من يتردد على المنزل ، كالدلالة وابنتها ، والبلانة والقابلة ونظلة الهابلة وسارة الشامية بائعة الصابون والشيخ أحمد المجذوب . .

عيبه الوحيد أنه لا يدفع الاجرة بأكملها يوم أول الشهر ، فتدعوه الست خيرية إلى الصعود إليها ، فيطلع ويقف أو يجلس على كرسى بجانب الباب وهى تكلمه وتصلح طرحتها فوق رأسها ، ويدور بينهما حديث طويل ينتهى فى أغلب الأمر برضوخ الست خيرية لرجائه فى أن تصبر عليه قليلا وهو يقسم أن هذه آخر مرة يُقصِّر فيها عن دفع الأجرة فى موعدها .

لا يفطن أحد لبمبة وهى واقفة بجواره عيناها عليه ، نظرة تشمله من رأسه إلى قدميه ، كأنها أم تنظر إلى ابنها الفالح يلبس ثوباً جديداً أمام المرآة فينسجم عليه ، شفتا بمبة تنفرجان عن ابتسامة خفيفة ، يدها الحمراء على خدها ، ورأسها مستند إلى حافة الباب ، تسعل بين الحين والآخر سعالها المتعب ، تنسى تحذير سيدتها وتمدّ لسانها فى بعض الأحيان وتدافع عن الأسطى حسن ، ثم تنزل وراءه وتشيعه للباب ، وقلما تنزل بمبة الآن للفناء ، دون أن تنادى الأسطى حسن من شق الباب ، لسبب أو لغير سبب ، للفارغ والملآن . . هى التى اقترحت عليه أن يعطيها ملابسه لتغسلها له ، ولما كلم الأسطى حسن الست خيرية فى هذا الأمر تجاهلت بمبة أنها تعلم شيئا ، وتمنعت قليلا ، ليكون مفهوما أنها لا تفعل ما يطلب منها إلا تحت إلحاح الأسطى حسن وبموافقة سيدتها . . تغسل له كل

أسبوعين جلبابه وقميصه وسرواله ، وألفت بمبة عرق الأسطى حسن وأصبحت تميزه عن عرق أهل البيت ، تناوله في الصباح التالي ثيابه مطبّقة نظيفة فيأخذها ويقول لها :

- ياسلام ياست بمبة ، قليل زيك في الدنيا ، من إيدين ما أعدمهاش أبداً .

فتبتسم له عن أسنانها الصفر الغلاظ ، وتسليم الغسيل وتسلُّمه مناسبة لا تمر دون أن يشتكي لها صعوبة العيش وهو أعزب غريب في مصر ، يسكن بمفرده في منزل يعج بسكان عيونهم تندب فيها الرصاصة ، لا يجد راحة في نومه ، ولا طعماً هنيئاً للقمته ، وملابسه مبعثرة بين البيت والدكان .

وكانت بمبة تنقل هذا الحديث كلمة كلمة إلى الست خيرية ، كان جوابها آخر مرة :

- أحسن له يجوّز . . ياريت يشوف له واحدة بنت حلال تصون له نعمته .

٤

وانخطفت بمبة أياما طوالا في نوبة من الجري وطلوع السلم ونزوله ، أفندم ! من الانحناء والقرفصة ، حاضر ! من القيام والقعود ، طيب ! من فوق لتحت ، نعم ! خذي ، هاتي ! ودّي ! جيبي ! ، ماتعرفيش الشمال من اليمين ، اللي جاي من الجبالية اتعلم وانتِ لسّه زي الهم على القلب .

ثم استفاقت ذات يوم فإذا هى وحدها بالدار ، خرج الجميع لعمل أو لزيارة ، وكانت تكنس السلم ووصلت إلى الفناء ، ثم واربت الباب لترمى القمامة ، والتفتت فرأت الأسطى حسن خارجاً من الدكان وفى يده القلة ، ففتحت له الباب ، وانثنت معه تصحبه للصنبور ، ومدت يدها لتأخذ منه القلة ولكنه تشبث بها :

-خلى عنك .

وتلامست أيديهما برهة ، وانحنى الأسطى حسن ووضع القلة تحت الصنبور ، ووجه نبة الهادىء تتغير معالمه فى لحظة ، تندلق عليه ضحكة ساذجة وتلمع عيناها ببريق صبيانى خبيث . .

ومدت يدها المبتلة نحو قفاه ولمست بإصبعها جلده فانتفض الرجل وهب واقفا ، حركته المفاجئة أذهلتها فقفزت من مكانها والتصقت بالجدار وسترت رأسها بذراعيها ، كطفل يلعب «الاستغماية» لم يتمالك نفسه من الضحك ، شىء فى وقفتها وضحكها وجزعها أفقده اتزانه ، فإذا به ، على غير انتظار ، يملأ كفه بالماء ويرش به وجهها ، فغرت فمها فى صرخة عالية طويلة مستمرة تقرب من «صوات» النائحات ، كأنها تتوجع من ألم حاد ، أو كأنها مقبلة على نوبة صرع ، وأحس الأسطى حسن أن شعر رأسه يقف ، صرخة مخيفة انخلع لها قلبه ، وقف برهة حائرا ، لم يخرجه من دهشته سوى الماء تشرق به القلة ويقرقر فى حلقها . قفل الأسطى حسن الصنبور ، وعاد لنبة ، وقف بجانبها برهة ثم ربت على ظهرها ولمس رأسها وانحدر ذراعه إلى كتفها واستدار حول رقبتها ، تضاءلت نبة وكادت تهبط إلى الأرض . قال لها :

- لما انتى مش حمل المزار يابنت الحلال بتهزرى ليه ؟ كان جوابها :
- رش المية عداوة .
- لا أبداً ، هو فيه أعز عندى منك ، دنتى ضفرك عندى بالدنيا ياست بمبة !

وأخذت بمبة تعيد لف الطرحة بيديها ، وعادت لذهنها كلمة سمعتها من قبل عشرة أيام كانت قدنسيتها فإذا هى الآن تملأ رأسها :

ياريت يشوف له واحدة بنت حلال تصون له نعمته .

وربّت الأسطى حسن مرة أخرى على كتفها واستسمحها وأخذ القلة وخرج .

٥

طعام العشاء هو المناسبة الوحيدة التى تجتمع فيها الأسرة كلها معاً ، جلس الجميع حول مائدة من الخشب الأبيض ، بين كل كبيرين شيطان من الإنس يساهم فى الضجة بزعيقه وزياطه ، فائقة وحدها تمتاز بكحلها وثوبها المطرز ، وباقى الجالسين فى ثياب المنزل ، شعرهم هائج أو ملبد ، لفرج أفندى سروال طويل تظهر له أربطة من تحت ذيل الجلباب ، وحلمى أفندى يلبس طاقية تهبط إلى حواجبه ، هم ملح الأرض ، يأكلون بأصابعهم ، ويقطعون الخبز فى لقم كبيرة تعمل عملها فى صحن الطبيخ ، وبمبة واقفة تناولهم الماء والخبز وتذهب للمطبخ وتعود حاملة الأطباق .

كان أول الطعام ليلتئذ طبق ملوخية ، وحين بدأت اللقم الغموس فتحت الست خيرية سيرة زواج الأسطى حسن وأخبرتهم كيف طلب منها

أن تتوسط له فى خطبة بنت حلال من معارفها .

محمود - عشان ما هو ساكن ملكنا رايح يلقح جتته علينا لا . لا . إحنا ما نتداخلش فى حكايات زى دى ، وقالوا احضر جنازة ، ولا تحضر جوازة ، وعلى كل حال ده رأيى .

فائقة - ما هو الصنف ده كده ، لما يلاقى وش .

خيرية - ما فيش أحسن من عمل الخير ، ما تعرفوش يابخت من وفق راسين فى الحلال ؟

زينات - ياترى يدفع مهر كام ؟

حلمى - ده شىء يغيظ ، راجل يماطل فى دفع ثمانين قرش كأنهم ثمانين جنيه وبعدين يقول عايز أجوز ، وتلاقيه يدفع المهر زى الحلاوة .

فرج - عندنا ساعى فى الديوان له بنت حلوة .

نعمات - شفتها ؟

فرج - لا ، لكن أبوها راجل طيب .

نعمات - وايش دخل ده فى ده ، ياناس ! ياأخى أجيب لك شوية عقل منين .

وأخذت بمبة طبق الملوخية ووضعت بدله طبق باذنجان مقلى عليه لبن زبادى .

زينات - إحنا مالنا ومال الغُرْب ، وح نروح بعيد ليه ؟ عندنا زينب بنت الدلالة .

فائقة - أهو تلاقيه ناقصها من ساسها لراسها وهى داخلة خارجة وقليل ما سألها عن «صيغة» أمها دهب ولا قشرة .

خيرية – أنا برضة عاوزة أوريه العروسة قبل ما نقطع عرق ونسيّح دم .

نعمات – هو ماله ومال واحدة بنت بلد تلوعه وتتبغدد عليه ، دى زينب بتتكلم بالعين والحاجب وهى لسه ماطلعتش من البيضة ماتكلموله الشيخ مهدى المستأجر الجديد ، له بنت مش بطالة ، وحتى حافظة القرآن وتصلى .

حلمى – حقيقى جهاز المنجد أرخص جهاز ، هو اللى ينجد الجهاز على إيده ويفرشه بمعرفته ، يقف عليه رخيص خالص . .

فرج – طب والحلل ؟ طب ده السرير وحده يتكلف مبلغ .

فائقة – ياسيدى يناموا على الأرض ، سرير نحاس أصفر «ويلدكان» وناموسية ، وكرسى سرير قطيفة ، والحيطان مهيبة .

بهية تملأ الكوب الوحيدة وتناولها ذات اليمين وذات اليسار ، وحينما ينقطع الشرب تأخذ الفوطة وتهش بها الذباب من على الأطباق . . لا تسمع الحديث الدائر كله ، فهى تذهب للمطبخ وتعود . . إلا أن سعالها الخفيف زاد تلاحقه وتكراره ، لا يخرج من حلقها سهلا هينا ، بل يسمع له عند انفصاله عن حلقها حشرجة مكتومة . .

خيرية – أنا حاطة عينى على فردوس خدامة الجيران ، أهى بنت يتيمة ومنكسرة ولا تتعبوش ، حلوة مش بطالة ، سنها صغير صحيح ، لكن جسمها فاير ، زرع بدرى .

فائقة – بس لو تعجبه ولا يقولش عليها سمره وشعرها مكتكت ،

قليل ما قال أنا عاوز بنت من عيله غنية عندها طين .

خيرية – لا مايقولش كده ، ده ولد طيب ، عايز حاجة تستره وأنا عارفه أنه ح يقبل لما أكلمه أنا عشانها وأمدح له فيها .

وكانت الأيدى تذهب وتجىء على طبق الأرز حتى هبط كله وانكشف قعر الطبق ، ودارت ملعقة نشطة جمعت الحبات المتناثرة على أطرافه .

مدت بمبة يدها لتأخذ الطبق فصدمت الكوب فانقلب وانسكب ماؤه وبلل حجر فرج أفندى .

التفت لها الجالسون وانعقدت ألسنتهم ، بمبة فى حال لم يروها عليه من قبل . . وجهها الأحمر مصنفر ، وشفتها السفلى زرقاء ، ترتعش ، تتكلم غير واعية نفسها :

– ياست مفيش نصفه ؟ .

– جرى إيه يابمبة ؟

– ليه كده ؟ بعد تعبى عليه وشقايا فيه وصبرى . .

انقطع تنفسها ولم تستطيع أن تتم جملتها .

–جرى إيه يابمبة ؟ .

– اتكلمى ! بسم الله الرحمن الرحيم . قولى !

– يعنى إيه تاخدوا الجدع من إيدى !؟

هبطت على الجميع دهشة تملكتهم ، خرست الألسنة كلها وشمل المائدة سكون . . دهشة مصحوبة بغياب الذهن وشروده ، يخبرون فى أنفسهم تيارات مبهمة من أحاسيس غير واضحة ، هم كالراقد تحت السماء ، حينما يتململ للشمس قد ذر قرنها فوق الأفق ، هو نائم ، ولكنه

يشعر وهو غارق فى غيبوبته ، بالقوة والوهج المقتربين وعيا قليل يشملانه ، ولو كان فى تمام اليقظة لما جاوب إحساسه مدركا عظمة الشروق تتجلى على الكون وعليه . . فإغفاؤه هو الذى مكن المقدرة الحقة الكامنة فى كل قلب من أن يتملص من سيطرة العقل وقوانينه وخرافاته وأوهامه وريشة التقاليد والمخاوف والرياء ، أن يتهرب من عصاه الجاهلة القاسية ، وتنفصل حرة كما برأها الله ، وتهتز كإبرة البوصلة كلما انكشف عنها الغطاء واندمجت فى الكون وخشعت لخالقه وحنت للقائه ، يستيقظ هذا النائم والنهار عال فيقوم يفرك عينيه ويتثاءب ، ليس هو الذى اهتز لبهاء الفجر بل كان المهتز شخصا غيره .

يشعر القلب وحده فى بعض الأحيان بإحساس ينحبس فيه ولا ينتبه له صاحبه لعله يشعر به أيضا ويتهرب منه ، ولعله يخشاه فهو يكتمه مكانه ، ولعل الذنب هو ذنب أعصاب بليدة لا تستسيغه ولا تنقله ، فى قلب كل جالس حول المائدة عين من الأسى والحزن ومضت مرة ثم نامت ، كأنها لم تستفق أبداً . . يفقد الزمن فى مثل هذه الأحوال بعض حركته واندفاعه ويصعب قياسه وضبط الشعور بمروره ، لا يدرى أحد من الجالسين حول المائدة كم دام هذا الإحساس الغريب ، هو لم يدم إلا أقل من لحظة انقضت وتركت وراءها ضجة ونقاشا من كل ناحية ، واندفعت النسوة الشابات فى ضحكة عالية ولحق بهن الرجال وقام الجميع من الأكل وهم يقهقهون .

وقال حلمى :

–جرى إيه لعقلك ياتيجة ؟

وجلست إلى الباب وهى تسعل مرة إثر مرة ، غير متنبهة للملاحظات

تنهال عليها .

لمست الست خيرية رأسها وهى تمر أمامها وقالت :

-ده العقل جوهرة ، ربنا مايحرمكيش منه ، إنت يابنتى اتجننتى ، سلامة عقلك !

لبثت مكانها برهة غير قصيرة وهى لا تتحرك ، ثم قامت ودارت حول المائدة تجمع اللقم لعشائها .

ورفعت نظرها فوجدت أمامها محمودا واقفا يضحك .

- والنبى تقولى لى ياعبة ، صحيح لو اتجوزتيه تعملى إيه ليلة الدخلة ؟ ابق اشترى حق حسن يوسف وعلبة بودرة ، إن كان على الكحل عندك هباب الحلة ، يومها ابقى استحمى بس أخاف عليك من الحمام يخسسك قوى ، أصل سمنتك أكترها وساخة .

وبدأ فمها يمتد شيئا فشيئا واستعرض فى ابتسامة يعلوها الخجل والحياء . وهدأ الغيظ فى عينيها وبان الرضا والرضوخ القديم . .

- إخص عليك ! أنا مش أبدى من الأسطى حسن ؟ الجار مش أولى بالشفعة ؟

ضحكة كبيرة عريضة على وجهها ، تشمله من الجبهة للذقن ، من الأذن للأذن ، وبدت فى صوتها نغمة التدليل التى لا تظهر إلا حين ترد على معاتبات محمود !

- يلا ، يلا من هنا ، بلا قلة حيا .

وجلست وحشت فمها بلقمة كبيرة وبدأت تمضغ وتبلع .

(«المجلة الجديدة» السنة الثالثة ، العدد ٥ ، مايو ١٩٣٤ ، ص ص ٦٥ - ٧٨)

إفلاس خاطبة

أكره من نفسي تأثرها الشديد بحال من أعاشره من الأصدقاء عشت - وأنا الفقير - زمنا غير قصير أتتبع باهتمام أسعار الأسهم والسندات ، أتعجب لهبوطها ، وأفرح لارتفاعها ، لأنني كنت أعاشر في تلك الفترة صديقاً يشتغل بتجارتها ، وقد مرت على السنتان الأخيرتان وتفكيرى لاينقطع ليل نهار فى مشاكل الزواج فى مصر ، والفضل فى ذلك - وبعض الفضل بلوى - راجع إلى صديقى القديم عبد العزيز فواز .

كان أبوه كاتب مركز ، قضى عمره متنقلا - كالبدو - من بلد إلى بلد ، ولما نال عبد العزيز دبلوم الفنون والصنائع وُظِّف بتفتيش الرى فى السودان ، وغاب عنى عشر سنوات ادخر فيها المهر ، ثم نُقل إلى القاهرة ، فوصلها لايكاد يعرف أحدا غيرى ، فأصبح يلازمنى ويسهر معى كل ليلة ، وقاطعت بقية أصدقائى ، وأهملت بعض شؤونى من أجله .

كان ذلك منذ سنتين ، ولا أزال أذكر إلى اليوم كيف أفضى إلىّ فى أول



جلسة لنا ، برغبته فى الزواج ، فهو شاب مستقيم ، موفور الصحة ، والمهر حاضر عنده ، بل عنده أيضاً مجموعة نادرة من جلود الثعابين والسحالى والتماسيح ومراوح ريش النعام تغنيه عن تكلف شراء الهدايا للعروس التى لا تزال فى عالم الغيب .

وفى الجلسة الثانية بدأ عبد العزيز يستنصحنى ويشكو الى متاعبة قال :

- لى زميل يعرض على إحدى قريباته ويطريها ، (فعلمت أن زواجه أصبح حديثا شائعا فى ديوانه) وطلب إلى أن أصحبه لزيارة أهل الفتاة لكى أراها ولكنى اعتذرت ، لأننى خجول ، وثقيل على نفسى أن أدخل دار كل من فيها - حتى الخدم - يعلم أننى جئت خاطبا . . كيف أتهرب من الشعور بأننى «ملقح جتتى» أو أننى فى أزمة سببها قلة حيلتى وخيابتى ، ولا يقبل حيائى أن أجرح إحساس الأسرةبالرفض إذا لم تعجبنى الفتاة ولن أسلم بهذا الرفض من أن تسلقنى الأسرة كلها - والفتاة فى مقدمتها - بألسنة حداد ، بعد تبادل الابتسامات والتحيات الزائفة فى حجرة الاستقبال .

وفى الليلة التالية جاءنى يقول :

- لقد اتفقت وزميلى على أن يجمعنى بقريبته فى السينما ، وقد رأيت من الكياسة أن أشترى أنا التذاكر ، وسأذهب غدا ، وقد أقسم صاحبى أنه لن يخبر الفتاة بشىء ، وأنها ستجهل أن ذهابها للسينما إنما هو لعرضها على خاطب ، وأن اللقاء سيتم كأنه يحدث مصادفة لاعن قصد وترتيب .

وبطبيعة الحال حنث الصديق فى يمينه ، وارتدت الفتاة أغلى ما عندها من الأثواب ، واشترت حذاءً جديداً .

وصل عبد العزيز مبكرا واختار له ركنا متزوياً فى مدخل السينما ، وظل يتطلع للقادمين حتى رأى صديقه عن بعد ، ولكنه لم يستطع لشدة الزحام أن يتبين وجه الفتاة بل رأى منه نتفا متناثرة بين الأكتاف والطرابيش والقبعات ، ووجف قلبه حين رأى معهما سيدة عجوزا ، جاثمة العينين ، وأدرك أنه هو الفريسة المنتظرة . . ثم شد من عزمة ودخل الصف ومر أمام زميله فإذا به يهب واقفا يسلم عليه سلام المشتاق المتعجب لهذه المصادفة السعيدة التى تجمعهما على غير انتظار ورتب أهل الفتاة جلوسهم بحيث جاء مقعده عن يمين العروس ، ولكنه لم يكد يجلس حتى أطفئت الأنوار ، وظلت جارته كالمنومة لاتحرك رأسها يمينا ولا يسارا ، وأصيبت الأم فجأة بتصلب فى شرايين رقبتها أمال رأسها نحوه ، لاتتحول عنه ، ينبعث من عينيها فى الظلام شعاع لايقل لمعانه واتصاله عن شعاع السينما المتدفق إلى الشاشة ، وفى فترة الاستراحة وقعت نظراته إلى معصم جارته فرأى ساعة جميلة من شرر الماس ولكنه لاحظ أنها واقفة على «عشرة وثلث» وساد الظلام من جديد ، ثم أضيئت الأنوار ، وتدفق الجميع - تسوقهم موسيقى (مارش) عسكرى سريع - نحو الباب ، وأخذ صديقه يصرخ فى طلب سيارة - مع أن دارهم قريبة - ثم غابوا عن بصره وهو واقف غارق فى عرقه ، وهكذا انتهى عرض الفلم والفتاة أيضا .

***

قال عبد العزيز شاكيا :

- بالله عليك كيف أصدر قرار حاسما فى أمر يتوقف عليه مستقبل وسعادتى بعد مقابلة خاطفه كهذه ؟

ثم جاءنى بعد أيام وفى عينيه جهد الصابر الذى امتحنه الله ببلاء قاصم ، وقال لى إنه قابل فتاة - عن طريق وزارة الأوقاف - فى حديقة الحيوان ، وأخرى - عن طريق مجلس الوزراء - عند شيكوريل ، وثالثة عن طريق وزارة المواصلات - فى حديقة الأندلس ، ولكن الأولى قصيرة ، وهو يريدها طويلة ، والثانية طويلة ولكنها بدينة وهو يريدها ممشوقة القد ، والثالثة سمراء وهو يريدها بيضاء ، فهو قادم من السودان ، ويكره السمراوات أشد الكُرْه .

فلم أتمالك نفسى من الرثاء لحاله ودعوت له بالتوفيق فى محنته الكبرى . .

كان صديقى قد يئس من نجاح خطة اللقاء خارج الدار ، واختفى خجله بفضل التدرب والتمرن ، فأصبح لا يتهيب دخول البيوت من أبوابها .

فرأى فتاة فى منيل الروضة (تكاد تقع من فرط هزالها) ، وأخرى فى العباسية (فى عينيها حول) وثالثة فى شبرا (لها ضب) .

قلت له الزواج « لوترية » ، يا نصيب ، فأمّن على قولى ، ولكنى وجدته لا يعنى بهذه الحكمة أن التوفيق فى هذه الأمور هو من عند الله لا من سعى البشر ، بل وجدته قد فهم من «اللوترية» أنها شىء تكسب منه مائة . . جنيه بقرش واحد ، وإلا عددت نفسك خاسرا . .

وأخيراً نصحته - توفيراً للوقت والجهد - أن يلجأ للخاطبات فسألنى ان كنت أعرف واحدة منهن ، ولحسن الحظ لاتزال فى حينا خاطبة مشهورة

اسمها زنوبة ، كانت أمها دلّالة والظاهر أن زنوبة ترملت فى شبابها فلم تجد لنفسها مرتزقا الا أن تسلك سبيل أمها ، بل جاوزتها وأضافت على مهنتها الموروثة مهنة الخاطبة ، يتحدث الجيران عن غناها الوفير وتقتيرها الشديد على نفسها (وكأن الأرقام عندها خلقت فى الأصل لعد النقود) ، فهى رغم شبابها تلبس طرحة سوداء وثيابا بالية قديمة ، وإن كانت نظيفة . لها أصابع كمخالب الطير تشد بها على حقيبة يد عتيقة جديرة بأن تجد لها مكانا فى المتاحف ، وربما عرجت فى مشيتها قليلا لأن كعب الحذاء ملتو متآكل ، وهى تضع على عينيها نظارة زجاجية لها إطار من المعدن الأبيض ، تطل من ورائها عينان متضخمتان . كلامها ساحر وحجتها لا تهزم .

أخذت عبد العزيز إلى زنوبة فنظرت إليه نظرة فهمت منها أنها قرأت (٢٥جنيها) مكتوبة بأرقام واضحة على وجهه ، هذا هو تقديرها لأتعابها المنتظرة ، وتركته معها ، وخرجت ، فليس أكره على السمسار من رؤية رجل دخيل بينه وبين الزبون . .

* * *

قدّمت إليه زنوبة قدحا من القهوة ومفكرة حافلة بأسماء وعناوين وبيانات عن الأقارب ذوى السلطان ودرجة التعليم ومقدار الاستحقاقات فى الأوقاف إذا مات الجد أو الجدة بعد عمر طويل . .

وتفتحت لعبد العزيز أبواب دنيا جديدة وأخذ يقلب صفحات المفكرة ، كأنما يقرأ قصة شائقة استولت على لبه وفؤاده ، ثم جاءته زنوبه بمجموعة كبيرة من صور فوتوغرافية لفتيات ، فيهن المبتسمة والخجولة ،

والمعتدة بنفسها ، فيهن من تلبس ثوب السهرة ، وفيهن من اختارت زى الفلاحة ورقدت بجانب بلاص . . وعبد العزيز الجائع يجد نفسه فجأة فى مأدبة شهية ، فلم يشعر بمرور الوقت وقام ينتزع نفسه انتزاعا من مجلسها ووعدها بالعودة بعد يومين ، ولما خرج شعر أن الحياة حلوة جميلة ، وأن سهرته ألذ سهرة قضاها فى القاهرة منذ عودته من السودان ، وتمنى فى قلبه أنها تتكرر .

وجاء الموعد فوجد عبد العزيز نفسه يسير مجدا إلى دار زنوبة ، ولم يكد يجلس ويشرب القهوة حتى انطلق لسانه وأخذ يشكو لها متاعب حياة الأعزب وهمومه ، وجعلت زنوبة تسأله عن أسرته وماضى حياته ، وعن مأكله ومشربه ، وأين يسهر ومع من ، فاشتكى لها الوحدة وقال :

ـ لا أجد لى جليسا إلا جارك الذى تعرفينه وهو رجل شارد الذهن صامت قعيد قهوة . وكلما فارقته أقسمت أن لا أعود إليه ولكنى لاأعرف أحدا غيره .

قالت له :

- سيوفقك الله إلى عروس جميلة أصيلة فلتكن نيتك خالصة سليمة . .

مس حنوها قلبه فانتقل وجلس بجانبها على الكنبة وقال :

- لم أجد من يفهمنى غيرك ، وأنا أيضا أتوسم فيك ياست زنوبة رجاحة العقل وطيبة القلب . ورأت زنوبة زرار فى ثيابه يريد أن ينفلت فقامت تجىء له بخيط وإبرة ، فلاحظ عبد العزيز أن مشيتها رشيقة وقوامها معتدل وإن كانت نظرته تأففت من شعرها المكوم فوق رأسها ، وكره هذا

القرط الطويل - على شكل قلب مطعون بسهم - وهو يتأرجح كلما هزت رأسها ، وتلفت فوجد أثاث البيت رغم قدمه وقلته نظيفا حسن الترتيب ، والبيت هادىء لاضجة فيه ولاربكة ، القهوة مضبوطة ، والماء مبخر بالمستكة . . قال لنفسه (ترى كيف تبدو لو خلعت نظارتها) ؟

وعادت زنوبة وانحنت تخيط له الزر واقترب رأسها من صدره وكاد شعرها يلمس طرف أنفه ، وتشمّم رائحة جلدها وأحس دفء جسدها وثبتت نظرته قليلا على هذا الزغب الدقيق المختبىء تحت منبت شعرها على قفاها ، لم يثبت له لون ، ولا استقام عود ، فذاب قلبه حنانا لبراءتها وضعفها ، ثم انزلقت نظرته على غير ارادته ، من قبة الثوب ، وقد هبطت عن صدر زنوبة لانحنائها عليه ، فوصلت إلى ملتقى ثديين مزتلقين كزوج حمام راقد فى عش ضيق ، تحسبه غافيا ساكنا وهو ينبض ويهتز بسر الحياة . .

وقضمت طرف الخيط بأسنانها وقالت وهى تبتسم له :

- إن كانت لديك ثياب فى حاجة إلى إصلاح فجئنى بها ولا تتهيب ، فليس أحب إلىّ من أن أعين رجلا مسالما طيب القلب مثلك . .

ثم حدثته عن الفتاة التى اختارتها له وجاءته بصورتها ، فلم يرض بها عبد العزيز وصارحها بأنها لا تعجبه ، فقدمت إليه مرة أخرى مجموعتها فأخذ عبد العزيز يتنقل بينها وهو سارح الذهن إلى أن أشار الى صورة فيها وقال :

- لو بدلت هذه الفتاة قرطها الطويل بقرط صغير لكانت أجمل كثيرا فان بدعة الأقراط الطويلة قد انقرضت ولا يتمسك بها الا بنات البلد . .

وانتهت المجموعة فلم تغضب زنوبه ، بل استمهلته يومين آخرين، فعسى أن تقع على فتاة طيبة تليق له . وسار عبد العزيز فى المرة التالية إلى دارها وقد تأنق فى ملبسه قليلا ، ومعه علبة شكلاته ، ولما ناولها العلبة خفق قلبه ، إذ رأى فى أذنيها قرطا صغيرا على شكل زهرة بيضاء ، وقدمت إليه زنوبة فطيرا من صنع يديها وجلسا يأكلان من هديته وهديتها . . والغريب أنه لم يبدأ الحديث عن العروس ، بل أخذ يروى لها حياته والسفارة فى السودان وهى تستمع له باهتمام ، وضحكا معا مرارا ، وإذا بعبد العزيز يسألها فجأة :

– لماذا لاتخلعين هذه النظارة ؟

ومد يده ورفعها فقابلته عينان فيهما شىء من الجحوظ شأن قصار النظر ولم يكن يدرك من قبل أن هذه العلة تضفى على المرأة نوعا من الجمال ، لأن النظرة تكون تائهة ، مضاعفة ، فى غلالات من الأحلام ، ورأى عينين صافيتين تطل منهما ابتسامة ذات حياء ، لسفورهما بعد الحجاب الطويل .

وقال لها عبد العزيز :

– إكرامك لى إذا ما جئتك أن لاتعودى إلى هذه النظارة . فضحكت وقالت له :

– وعليك ثمن الأقداح والأطباق التى تتساقط من يدى .

وخرج والليل قد انتصف وهو مرتاح الصدر هادىء الأعصاب . وكان الموعد غدا .

وفى الغد عرضت عليه صورة فتاة جديدة فلم يكد ينظر اليها حتى نحاها عنه وقال :

- لاتعجبنى .

- لقد حرت معك ، فكيف تريدها ؟

قال لها وعيناه تتطلعان الى عينيها :

- أريدها فى قوامك وطولك وعرضك وفى لون شعرك ، وطيبتك وظرفك ، وأريدها مثلك سمراء ، فما أحببت قط النساء البيض فهن باردات على قلبى . .

تورّد خدّاها وقالت له :

- تعال بعد غد ، عسى أن أكون قد وجدت طلبتك .

ولاحظ زملاؤه أنه انقطع عن الشكوى وأصبح أكثر مرحا وانشراحاً ، ولكنهم لا يرونه بالليل وهو يسير والنيل يشعر أن قلبه مهصور تشد عليه يد قوية لاترحم ، تجذبه جذبا إلى بيت زنوبة .

وذهب عبد العزيز الى زنوبة ، ولبثا يتحدثان طويلا ثم قال لها وهو يبتسم :

- هل وجدتها ؟

قالت :

- من ؟

قال :

- العروس !

فاضطربت كأنها تقوم من حلم وقامت وقالت :

- نعم وجدتها وسآتيك بصورتها .

فأمسكها عبد العزيز وأجلسها بجانبه وقال لها :

- لانفضحك على أنفسنا ، وأنت تعرفين الآن من أقصد .

***

وانتقلت زنوبه من حيِّنا وانقطع عبد العزيز عنى ، ولكنى قابلته صدفة ذات يوم فأفضى الى بخبر زواجه من زوزو . . (هذا هو اسم زنوبة الجديد) واستحلفنى بالله أن لا أذكر خبر زواجه لأحد ، لأنه - كما يقول - لايريد أن يعلم الناس عنه أنه تزوج من امرأة غنية . . فطمأنته وباركت له ، ولكنه تمهل قليلا وقال :

- هناك شيء واحد لا أفهمه فى زوجتى ، فهى حسناء طيبة القلب ذكية ، ولكنها كسرت خاطرى فى أمر هين لايقدم ولا يؤخر . قدمت لها المهر المتفق عليه فى ظرف ، ومعه مجموعة نادرة من جلود الثعابين والسحالى والتماسيح ومراوح ريش النعام ففتحت الظرف أمامى وعدت النقود فإذا بها تقول وقد بدت على وجهها دمعة واستنكار !

- لايزال ينقصه مبلغ آخر ، هو خمسة وعشرون جنيها إن أردت الحق والعدل .

فأدرت عن صديقى وجهى حتى لايرى ابتسامتى لهذه الخاطبه المحنكة التى نسيت عندتسلُّم المهر أنها هى العروس .

(مجلة الراديو المصرى، العدد ٥٩٩ ، ١٩٤٦/٩/٧)

كـــوكـــو

نشأت في أسرة محافظة لم يطرق التجديد بابها ، جدتى وأمى وأنا نصطف على سجادة الصلاة جنبا لجنب ، طرحة جدتى يختلط بياضها الثلجى بشعرها الأشيب وكأنها هالة القداسة ، وطرحة أمى إطار بديع لصورة بديعة ، وكانت عينى تغافلنى وتختلس النظر إلى المرآة لترى كيف أبدو فى الطرحه وأنا أعقد أنشوطتها تحت ذقنى .

ولا أبالغ إذا قلت اننى لم أر زوجى قبل كتب الكتاب إلا مرة واحدة يوم جاء يخطبنى ، ولم أرفع نظرى إليه حياء ، وتمت مراسم الخطوبة وأيام الاستعداد للفرح وأنا فى شبه حلم ، ولما جاء الوقت الذى أغادر فيه دارنا ربتت جدتى على كتفى وهى تقول «هذه سُنة الله ورسوله يابنتى !» بكيت ، روحى صعبت على ، خيل إلى أن أسرق باعتنى بيع السماح .

واستيقظت فوجدت زوجى قصير القامة ، أبطن ، ضيق الصدر ، حقيقة ومجازا ، إذا خلع نظارته مع الليل بدت له عينان ذابلتان وجفنان

منكسران . يحضننى كطفل خائف يحتمى فى صدر أمه ، ولكنى لا أنكر أننى أحببت يده الصغيرة الرخصة وأناملها السرحة ، وكنت أرق لها كلما لمست كتفى أو أخذت يدى ، اخذها بين يدى إذا أردت مصالحته بعد خصام ، (وما كان أكثره بيننا) وأقبلها ، وأقول له ، كأن كلامى موجه إليها :

- صافى يالبن ؟

ولكن كيف يصفو اللبن فى إناء تهب عليه أعاصير السموم . لم أطق صبرا ، وانفجرت يوما ، ثم لازمت فراشى ، وهجرت الأكل والشرب ، وجفانى النوم ، تؤرقنى ذكرى الكلمات الجارحة التى نطق بها لسانى ، وأعجب كيف صدرت منى ، وأنا التى تكره الإساءة وتمقت الأذى . .

ولما رأتنى أمى فريسة للضنى أخذتنى إلى دارنا ، وعدت إلى فراش صباى ، وشد ما كنت مشتاقة إليه ، وأخذت من جديد أستمع لتمتمة جدتى وأمى فى صلاتهما ، أما مكانى فى السجادة فشاغر ، فقد أصبح بينى وبين الصلاة هوة كبيرة .

ولكنهم أعادونى لزوجى وأنا لا أزال مريضة ، فصبرت وابتسمت ، وجعلت تسليتى مراقبة الطريق من بعيد وأنا جالسة فى مقعد تحت شجرة فى حديقتنا الصغيرة ، إلى هذه الأيام يرجع بدء معرفتى بجارنا الجديد الذى سكن قبالتنا وأنا غائبة فى دار أمى ، وبفضل ثرثرة الخدم علمت طرفا من حياته ، يعيش وحده مع دادة سودانية تؤاكله فى بعض الأحيان على مائدته ، يطالعنى وجهه إذا ما استيقظت حين أراه يفتح النافذة فيستبشر به الصباح ، وأراقبه وهو داخل خارج بالنهار ، أو تتصيد نظرتى شبحه بالليل وهو يظهر ويختفى وراء أشجار حديقته . "طاهر" متوسط القامة ، ضخم

الرأس ، وضاء الجبهة ، كأنه يسير فى الحياة على هدى نورها ، له عينان صافيتان ، ليس فى نظرتهما تساؤل ولا حيرة ولا فحص ولا استجداء ، يمشى بعض الأحيان كمشية البحارة ، أهو مقوس الساقين ؟ أم تراه كان فى شبابه من هواة الخيل ؟

ترى كيف كانت قبضته على عنان جواده الجامح ، وضمه ركبتيه على بطنه ، يقال إن الجواد الأصيل تسره من صاحبه هذه الضمة القوية وإن آلمته قليلا .

ماله لا يزوره أحد ؟ لم يروا امرأة تجتاز عتبة بابه ، ومع ذلك لم يكن يعيش وحيدا منفردا ، بل أحاطت به أسرة كبيرة : فهذا «تيدى» كلبه الضخم ، و «مرجانة» نسناسته المربوطة فى سلسلة فى ركن من الحديقة ، و «كوكو» ببغاؤه الذى اتخذ من النافذة مرصده ، وفى الشرفة قفص كبير ضخم مملوء بعصافير «البيروش» لا تنقطع زقزقتها ، ما بين صفراء وزرقاء وبيضاء وخضراء . . تعيش زوجين زوجين ، بينها من الإناث من هى شريرة مشاكسة ، تحب الجدل وتستثير العراك ، ومن هى وديعة مخلصة لعشها ، ومن تغازل ذكر جارتها وتخطفه منها . . لم التعالى والتعامى إذن وغرائزنا وطبائعنا هى صورة مطابقة لغرائز الحيوان وطبائعه ، أهذا جميل أم فظيع ؟

إذا عاد طاهر لداره بعد الظهر تلقفه «تيدى» من على الباب ، يقفز أمامه فى الهواء حتى يكاد يوازى رأسه ، ثم ينكص ويثب إليه ويضع يديه على كتفيه ، ويمد لسانه يريد أن يلعق وجهه أو كفيه (هذه هى قبلته) ، ثم يتركه ويجرى أمامه للدار ، ثم يعود ويدور حواليه وهو يبصبص بذنبه . .

ثم ينفض جسمه كأنما يريد أن يزيل عنه وخم كآبة انتظار الحبيب . . لقد بدأت حياته بعودة صاحبه ، كل هذا و «مرجانة» تكاد تقطع سلسلتها ، تقفز على قوائمها الأربع قفزات عالية لا تسمع لوقعها صوتا ، ثم تذرع المساحة المباحة لها ذهابا وإيابا ، قلبى يفهم ما فى قلب «مرجانة» من الغيرة ، يسير إليها طاهر فتقفز إلى كتفه ، وتحيط رقبته بذراعيها كأنها طفل يخشى الوقوع ، وكل ما يعرفه من حروف الهجاء الهمزة . . تتسع حدقتاها وتضيقان وهى تحملق فى وجه «تيدى» ثم تنتصب هالة من الشعر حول رأسها كلما كشر لها «تيدى» عن أنيابه . . نظراتها انتقالات خاطفة من الرعب إلى الجشع إلى العفرتة وحب الأذى ، إلى الشعور بالجرم إلى خوف العقاب ، أما «تيدى» فلا يأبه «لمرجانة» هو عاشق كامل لا يفهم الغيرة ويحتقرها ، فالغيرة تشغل من القلب مكانا تركه الحب خاليا ، ثم إذا صعد طاهر إلى حجرته أطلق العصافير من قفصها فتحوم حوله . .

وكان «كوكو» مسرة صبيان الحى كلهم . . يحب الصبيان معاكسة الببغاء إذ يتمثل فيه لهم ـ فى صورة مضحكة ـ كل ما عانوه هم أنفسهم من تعثر النطق عند أول عهدهم بالإبانة عن النفس . . لا يرد «كوكو» على سبابهم الخالد ، والذى لم أهتد بعد إلى معرفة سببه وأصل منشأه ـ «أبوك السقا مات» ـ إلا بقوله «ياولد ! ياولد !» ثم ينادى بين الحين والآخر «دادة . . دادة !» صرخاته تذكرنى بسيدة عجوز شعثاء الشعر ترملت فى شبابها . . ولكن لا تبخس «كوكو» حقه ، فهو يقلد أيضا مواء القط ونباح الكلب . كل هذا وهو فى ريشه الملون كالممثل القدير يقوم بدور فارس فى ثياب زاهية ، متعال متكبر ، لا تصل أمواج الحياة ، مهما علت ، إلى ركبتيه . . وما مر شحاذ إلا كان له نصيب من مطبخ طاهر . . لم أره قط

يعطى سائلا رغيفا مكسورا . .

واستيقظت صباح يوم على ضجة فى منزل طاهر ، حتى دادة «بحر النيل» خرجت إلى الشارع ، الجنايني بعمامته الصفراء التقليدية يجرى من هنا وهناك ، وطاهر فى بيجامته ينادى (كوكو ! كوكو !) ويشير إلى رأس شجرة عالية . وبقيت بالنافذة حتى فهمت من فتات الحديث أن طاهر فتح للببغاء قفصه فى الصباح ليهبط ـ كعادته ـ إلى الحجرة ، فإذا به يقفز إلى حافة النافذة ـ وكانت مفتوحه . فلم يسرع طاهر بغلقها ، وأراد أن يجرب إلى أى مدى سيتمتع «كوكو» بحريته ، كم تكون فرحته ، أتصورها وأنا بعيدة ـ لو طار «كوكو» إلى شجرة قريبة حتى إذا ناداه صاحبه هرع إليه .

ولكن حلمه لم يتحقق ، والحرية تؤخذ ولا تعطى ، فقد طار «كوكو» إلى الشجرة ، ثم بدا عليه حين نعم بالحرية فى أحضان فروعها أنه نسى كل عهد وميثاق ، رآه خادم أحد الجيران فتطوع لاستنفاذه ، وأتى «برأس العبد» وحاول أن يلمس بها «كوكو» فإذا بالببغاء يطير إلى شجرة أبعد ، ثم إلى شجرة أخرى . . ثم اختفى . .

لم تكن العاطفة التى بدت فى صوت طاهر هى الحسرة والحزن على ضياع «كوكو» بل الخشية على الطائر المسكين من غوائل الليل إذا أطبق على الكون ، ترى أين يكون منامه ، وهل يجد أكله وشربه ؟ هذا الذى ظل طول عمره يأكل ويشرب من يد سيده . .

وآويت إلى فراشى بعد العشاء فإذا بشبح ضيف طارق يقدم إلى نافذتى ويحط عليها بوجل ورهبة . . ثم سكن لا ينبض فيه عرق ، لم أتحرك من مكانى ، بل حولت عنه نظرى ، حتى لا أزعجه ، وإذا به بعد قليل يدير

رأسه وينظر إلى من جنب ، هذا المتكبر فى الأسر ذليل فى الحرية ، وظل مخه الضئيل يستوعب شيئا فشيئا ما تراه عينه المدارة إلى . هل يأمن لى ؟ هل أغدر به ؟ أخذت أحدثه من قلبى وأقول له :

- «كوكو ! لا تخف ، أنت فى دار أمان ، لن نختص بك ، ونحملك على كره صداقة جديدة قد لا ترتاح لها . تريد أن تعود لصاحبك ؟ لوجهه ؟ لصوته ؟ سآخذك إليه الليلة إذا شئت ستبيت معه من جديد تحت سقف واحد ، تخشى أن يطلع نهار لا تلقى فيه على صاحبك تحية الصباح ؟ لا تخف ! تعال قع فى يدى فلن يطول بعد الليلة عذابك !»

قفز كوكو إلى مائدة التواليت ، ولا أدرى عن عمد أم جاءت قفزته عفوا ، لماذا اخترتنى أنا وحدى ياكوكو دون بقية الجيران ؟ ما الذى تحسه ؟ هل قدومك فأل ؟ أم تراك فهمت ما لم يفهمه غيرك . . وتحرك كوكو حتى وصل إلى حافة المائدة ثم تريث كأنه يقيس مدى ارتفاعه عن الأرض ، وبعده منى ، قد تجمعت روحه كلها فى منقاره ومخالبه ، وانطفأت ألوانه ، وتركته صابرة لا آبه لمرور الزمن ، وإذا به يفلى صدره وما تحت جناحيه ، ففهمت أن قد جاءنى الإذن ، وقفزت إلى النافذة وأغلقتها . . تضاءل «كوكو» من الرعب وأدرك أنه خدع ، ورأيت نظرته تنطق باليأس ، ثم أحنى رأسه واستسلم ، لم يستطع معى جدالا ، وكان فى يدى بعد قليل ، وبعد قليل كنت أنا بنفسى فى منزل طاهر .

* * *

احمر وجهه قليلا حين دخلت عليه ، ولكن سرعان ما تحادثنا كأنه يعرفنى منذ زمن طويل وأنا أعرفه ، وتهاوت إلينا من الليل أستار ليس

لرقتها مثيل ، ستار وراء ستار ، ونحن لا نزال منكشفين لأعين النجوم .

ولما جلست بجواره سألت نفسي : أين شممت من قبل هذا العطر ؟ أتعرف شذى حقول الفول إبان إزهاره ؟ رائحة الخشب الغض حين يشقه المنشار ؟ رائحة صدور المرضعات ؟ وجاء «تيدى» وأقعى تحت أقدامنا وأغمض عينيه ، لحظة ، لحظة واحدة ، امتلأت أذنى بوسوسة الشيطان ، ولكنى نظرت إلى عينى طاهر الصافيتين وامتلأ قلبي طهرا . . وأحسست أنى أملك ثروة لا يحلم بها إنسان ، فيها الأمان من الفقر مادمت على قيد الحياة . .

* * *

زارتنى فى دار أمى صاحبة من ذلك الصنف الذى يطوف بالمنازل وينقل الأحاديث :

– هل سمعت ما يقوله عنك زوجك ؟ يقول إنه طردك لأنك غير شريفة .

وكانت تنتظر منى أن أنطلق فى السباب وذكر الفضائح ، ولكنى ابتسمت لها وقلت بهدوء . .

– معه الحق ، كنت غير شريفة طول إقامتى معه . . أما الآن فقد تبت . . صدقينى !

صـــــورة

صديقى «شوكت» هذا لا أراه إلا لماما ، وكيف أظفر به وهو لا ينقطع تقلقله واضطرا به . . أبواه يدللانه ويُرهبانه ، وهو يفر منهما ليقيم وحده فى حجرة صغيرة على سطح الدار ، يستيقظ مع الشمس فيندس فى ثيابه ، ثم يتدهور على الدرج كأنه نجاسة تركلها أقـدام طاهـرة ، حتى إذا خرج للطريق خف خطوه وبدأ تسكعه ، وعندئذ لا مفر من أن نودعه ، وإن كانت الساعة لا تزال مبكرة - فهيهات للمخيلة أو المنطق أن يفلحا فى تتبعه بعد ذلك ولو كنت به خبيرا ، فهو قد يفطر فولا وطعميه ، ويحلى بسبوسة ، فى حى سيدنا الحسين ، أو بيضا مسلوقـا ولحما باردا فى مطعم بجوار المحكمة المختلطة ، هو يدخل السينما لينام ، وقد يقضى أكثر الليل ساهرا فى مقعد على شط النيل .

استمع إليه يحدثنى ذات يوم :

- إننى أتعلم كثيرا من دراسة معارض المصورين الفوتوغرافيين وأقف



ساعات أمام سكانها المجهولين ، أتفرس وجوههم طويلا ، هذا دأبى منذ زمن بعيد . . دع عنك مصورى البطاقات الشخصية فعملهم نوع من التأتأة . . ولا أقصد مصورى الأحياء الإفرنجيةفليس بينى وبين معارضهم وشيجة روحية ، فلا أعنى بالأجانب ، أما المصريون الذين يظهرون فيها بزى رسمى أو غير رسمى فأغلب وقفاتهم متكلفة ، على الشفاه ابتسامة حائرة بين فرحة الفوز والاعتذار عن الغرور والإعجاب بالنفس ، هؤلاء أناس لا تتعبهم أقدامهم وأيديهم لطول بطالتها . . أما أصدقائى فهم زبائن مصورى الأحياء الوطنية ، كنت أعرفهم فيما مضى يشخصون بأبصارهم إلى العدسة ويحملقون فيها كأنما يتوقعون منها مفاجأة . . أذرعهم متصلبة ، وأيديهم حائرة ، فهى إما مستقرة على الركبتين ، أصابعها تارة منفرجة (ولا تدرى لماذا) وتارة مضمومة ، أو ملصقة بأفخاذهم وأصابعها ممدودة كوقفة صاحب الحلة الجديدة أمام الخياط فى أول تجربة . إثبات الود بين الصديقين أن يتصافحا أمام العدسة ، وبعضهم يرفع يده إلى رأسه يحييك أنت والمصور والعالم كله . . أما الفتيات فكالنباتات البرية لا تزال بشوكها ، لا تضحك من أحذيتهن أو تسريحة شعرهن ، بل انظر إلى العيون تجد جذلا فطريا وفرحة الطفل بلعبة جديدة ، أما إذا اعتمدت إحداهن برأسها على كفها فوق المائدة ، وتاهت نظرتها ، ومن خلفها ستار عليه رسم زهرية كبيرة أو درج فخم فاعلم أنها بنت مدارس ، ابتليت - والبركة فى القصص الغرامية - بداء الحب

كان ذلك فيما مضى . أما اليوم فقد كثر بين أصدقائى من يقلد كلارك جيبل أو بيتى جريبل . . بعض هؤلاء الناس يثبتون فى أماكنهم لا يتحولون عنها ، يوجهون إليك نفس النظرة بسنين طويلة ، كأنهم قطع متحف ،

وبعضهم – كما فى عالم الأحياء – يظهر حينا ثم يختفى ويحل غيره محله ، وهذا يذكرنى بحادثة عجيبة لم أستطع نسيانها إلى اليوم .

وصمت شوكت . وقد تعلمت ألا أستدرجه ، فصبرت حتى واصل الحديث ، فهو ممن لا يطيقون كتمان السر ، ولو كان أمرا يشينه . .

– هو مصور فى ميدان من أهم ميادين القاهرة كل زبائنه من الأغنياء ، لا يتم لهم عرس إلا إذا جاءهم قبل المأذون ، وكأنهم لا يتثبتون من معرفة أطفالهم إلا إذا رسمهم لهم . . كنت أسير غير ملق بالى فإذا بشىء يجذبنى جذبا . . التفتُّ فسحرتنى نظرة نفاذة كأنها تيار كهربائى ، تنطلق من عينى فتاة جميلة ، ارتدت – ولا أدرى لماذا ؟ – خمارا أسود . هل يكون تصنع الحزن من بعض الدلال ؟ ومع ذلك هيهات ! فالنظرة تنطق بالصبا المتلهف إلى اللذة والمرح والبهجة ، يؤججه جسد زاخر بالحياة ، يسكنه عفريت لعوب ، تتموج على الشفاه إبتسامة كاهتزاز أوراق الشجر يداعبها نسيم الغروب ، سرت قليلا ، ثم وجدتنى أعود إليها . ماذا تريد منى ؟ وماذا تريد أن تقول ؟ لم أستطع الانفكاك من سحر تلك النظرة ، ومع ذلك أحسست فى جسدى بشعور خفى لم أتبينه حينذاك ، ولكنه تركنى ضيق الصدر ، مكروبا ، مالى ومالها ؟ هى فتاة مغرورة تتباهى بجمالها وبصورتها الفخمة ، تريد أن تخلد فيها خيال مرآتها الفانى ، ولكن لا . إنها ليست نظرة موجهة إلى نفسها ، بل هى موجهة إلى غيرها ، إلى إنسان ، أيا كان .

أصبحت أقصدها وأقف عندها ولا أمر فى ذلك الطريق إلا سلّمت عليها وسألتها عن أخبارها ، إن نشوتها تبرد القلب ، وسعادة الصبا تقلم

الحسد وإن رغم أنفه ، وتطفىء مرارة الخيبة ، وتقلب حسرة الشيوخ رضا وذكريات وأحلاما . .

ومرت أيام وأنا أتوقع أن أراها - كما رأيت كثيرات غيرها من زبائن هذا المصور - مستندة على ذراع عروسها فى ثوب أبيض له ذيل طويل ، وحولها تلال من الزهور ، انتظرت ظهور هذه الصورة أياما بعد أيام ولكن سدى . . وظلت نظرتها تثب من وراء الألواح الزجاجية وتختلط بالمارة كأنها تريد أن تتشبث بإنسان من الناس .

ثم اختفت .

وكرت الأسابيع والشهور فإذا بى أجدها من جديد ، مرحبا ! مرحبا ! ولكن ما هذا ؟ خلعت خمارها فبدا لها شعر أسود فاحم فى أجمل زينة ، وارتدت ثوبا وسطا بين ثياب السهرة وثياب النهار ، حول عنقها عقد تعمد المصور أن يظلل واسطته لئلا تتبينها العين ، بل تدرك أنها ثاوية بين نهديها . . ويلتصق بأذنها قرط على شكل زهرة . إنها اليوم لا تنظر إلى المارة ، بل انصرفت عنهم قليلا ، فهى تريد ولا تريد أن تقع العين على العين ، وكفاها أذنها التى مالت بها قليلا نحونا كأنها تريد هذه المرة أن تسمع ما نقوله عنها ، لقد لوحتها الشمس ، فقد كنا فى نهاية الصيف ، وكأنها تسر إليك : «إننى كنت على الشاطىء ثم عدت للقاهرة» . تطلعت إلى الصورة من اليمين ومن اليسار لعلنى أظفر بنظراتها التى سحرتنى فلم أفلح . ماذا دهاك ؟ ولم تشيحين بوجهك ؟

وثبتت الصورة مكانها زمنا طويلا ، من حولها جيرانها وعالم المارة وموكب الحياة يدور ويدور كأنه رحى طاحون .

وتتابعت الفصول . .

استدارت وارتدت ثوب سهرة يكشف عن واسطة العقد ومشواها معا ، وتركت شعرها ينسدل على كتفيها وواجهتنا من جديد بنظرة فيها تحد واعتداد وكبرياء وشموخ ، العين مزججة بالكحل ، والشفة أرجوانية ، بل سوداء ، وكأنها ندبة . . لما رأيتها تلك المرة أدركت الشعور الذى انتابنى حين لقيتها أول ما لقيتها . . ياالله لهذا الفم ولتلك الثنايا . . فم واسع عريض كأنه فوهة بئر مهجور . . وشفتان غليظتان تكشفان عن ثنايا مفلجة ، أى شىء لا يقدر عليه هذا الفم المتعطش من لثم وتقبيل وما يتلوهما من ثورات عنيفة لا أزيدك بها علما . شهوة عارمة جامحة ، مقيدة بأغلال .

تذكرت ، لقد شعر جسدى حين لقيتها أول مرة بذلك الإحساس الذى كان يعترينى وأنا صبى مراهق ، عندما كنت أمر على بعض الأزقة ، فأبصر بائعات الهوى يعرضن أجسادهن للناس . كان يدفعنى الشوق ورغبة الإفضاء ، والغوص فى لجة الحياة ، وتصدنى دمامة الفساد ببخرها ونتنها وقروحها ، لقد كان القبح مجسما جاثما على فم هذه الفتاة ، قبح يثير فى النفس اشمئزازها ، ويهب عليها منه ريح حارة كالسموم ، عندئذ عزمت على الفرار منها ، وهجرها ، وعلى أن لا أعود إليها .

***

ومرت أيام فى أثرها أيام ، ثم لقيت صديقى شوكت مصادفة على قهوة فى شارع عماد الدين ، وأمامه حبات قليلة من الفستق هى كل ما كسبه

بثلاثين قرشا دفعها فى مراهنة بائع صعيدى مكار ، وقال لى :

- إننى لا أخسر إلا إذا كنت مضطرب الأعصاب ، أو اصطبحت بوجه كئيب . . ولا تأس على ، فقد كسبت منه مرة أقة كاملة بقرش واحد ، فخذ اثنتين ، ودع لى اثنتين ، وأنا أحب القسمة العادلة وأرجوك ألا تلح على أن أسير معك فلست الليلة خالى البال ، لقد كنت أكذب عليك ، وإنى أخبرك الآن أننى عدت إليها ، أيكون للقبح سحره أيضا لأنه يجعلنا - إذا ما انقضى - أكثر قدرة على تذوق الجمال ؟ أم لعل القبح هو مبدأ الخليقة التى فرض عليها أن ترقى منه - بمجهودها - قليلا قليلا حتى تدرك الجمال ، فسحر القبح نوع من الحنين إلى الماضى ؟

ولكن حالى مع هذه الفتاة على خلاف ذلك . فلا يهمنى وجهها ، إن الذى يهمنى هو روحها ، إنها لا تزال مكانها ، تمر أمامها هذه الجموع الغفيرة وليس فيها قلب واحد فهم آلامها ورثى لها إننى ألمس عذابها ولياليها الساهرة ، وابتسامتها المتكلفة تتظاهر فيها بالسرور وقلبها مغموم ، هى يد ممدودة لا تجد من يمد لها يدا ، صدقنى إننى أمر عليها فأجد نور عينيها ينطفىء يوما بعد يوم كاحتضار المشكاة ، ستقول : إن الصور تشحب عادة من طول تعرضها لأشعة الشمس . ولكن اذهب بنفسك شاهدها تجدها وحدها دون بقية الصور قد خيّمت عليها ظلال كالعنكبوت ، بل أكاد ألمح على وجهها خطين متعارضين كأنهما لطمتان ، أو علامة الإلغاء على مسألة مغلوطة ، ستقول أيضا : إن هذا من أثر ثنى ورق الصورة لقدم عهدها بالمعرض . ولكن ثق أن قلبى صادق فى شعوره ، بل إننى أكاد أجزم باقترابها من كارثة نازلة ولو ذهبت إلى رجال الإسعاف وقلت لهم

وأسرعوا ! تعالوا أدركوا فتاه د سها خطر شديد ، فقد أصيب قلبها بجرح بليغ وتوشك أن تتحطم ، فعساكم تنقذونها كما تنقذون غيرها» ، لسخروا مني وعدُّوني مخبولا . . وانصرفوا عني أيضا فليس للخبل عندهم دواء .

وكانت قصة رهان صديقي قد ذاعت ، فتألبَّ علينا بائعو السميط والفستق واليانصيب وماسحو الأحذية والشحاذون وعازفو الكمان ، فانقطع الحديث . .

وذات ليلة من ليالي الشتاء الماضي عدت إلى داري متأخرا ، فوجدت شوكت بالباب ينتظرني ، لا يأبه للبرد ولا للمطر ، ولم يكد يراني حتى صرخ في قائلا :

– أين كنت ؟ . . لقد بحثت عنك طويلا ، إنني أريدك معي هذه الليلة ، لا تتركني . .

وهو مخمور ، لسانه ثقيل ، وعيناه محمرتان . .

– لقد رأيتها اليوم في ذهابي للقهوة ، وأقسم لك أن نظراتها أصبحت أشد لمعانا كأنها نصل خنجر . . وارتسم فيها الغل والغيظ والقنوط والألم معا . . تتلفت إلى المارة ، وإلى جيرانها بنظرة ملؤها السخط والاحتقار . انقشعت الظلال ، وزال الخطان وتهيأت لأمر ، قد أطبقت أجفانها قليلا وضمت شفتيها وبدا على خديها غضون عميقة . . ثم عدت بعد ساعتين فالفيت أمام المعرض زحاما شديدا ، والزجاج مهشما متناثرا ، والصور ممزقة تحت الأقدام في الوحل . . بحثت بينها عن صورتها فلم أجدها . . قال لي بائع الصحف إنه سمع صوت تكسر الزجاج كأنما أصابته

رصاصة ، ولم ير أحد شيئا ، وقالوا لعله مخمور عربيد قذفه بزجاجة فارغة . . ولكن هذا كلام لا يدخل عقلى . . إن هاتفا يهتف بى أن هذه الفتاة قد انتهت . . سقطت أو انتحرت وأن قلبها قد حطم أغلال وانفجر . .

(مجلة «الكاتب المصرى» ، العدد الرابع ، يناير ١٩٤٦ ، ص ٥٧٧ ومابعدها)

تنوعت الأسباب

إنني شغوف بتتبع أخبار البخلاء ، فليس كمثلهم جنس من الناس ، يثير الاشمئزاز والابتسام في وقت واحد .

ويقال «لعل أبلغ ما أعلّك ما شفاكا» وهكذا أنا ، شفيت من هذا الهوس منذ أن سكنت دارنا هذه في حارة الشيخ البغال ، وتعرفت إلى جارتنا الست زليخة ، وإن كان الحق أنها هي التي سعت إلينا وطلبت معرفتنا ، ولم تكتم عنا أن سر مودتها لنا وترحيبها بنا راجع إلى أننا نملك ـ دون بقية الجيران ـ جهاز راديو . . وقد علمت فيما بعد أنها كانت تقضي أمسياتها بالمناوبة عند الجيران ، راديو أو لا راديو ، توفيرا لنفقات الإضاءة في دارها .

وأسارع بإخبارك أن منزلها لا ينار بالكهرباء ، بل بمصباح بترول صغير «نمرة خمسة» ، هو كل ما في دارها الكبير من وسائل الإضاءة ، اللهم إلا إذا

عددت من بينها تلك القدّاحة العجيبة التى تحملها معها أينما ذهبت وتحرص عليها أشد الحرص . .

ذلك أن الست زليخة تدخن السجائر ، ولكنها لا تشتريها ـ كبقية خلق الله ـ جاهزة ، بل تشترى التبغ ، وتلفه فى سجائر عجيبة الشكل ، تذكرنى بالمولوية فى حلبة الرقص ، فهى منبعجة فى طرف ، هزيلة فى طرف آخر ، وقد لاحظتها مرارا وهى تأبى أن ترمى عقب السيجارة إلا إذا أتت عليه ولو حرق أصابعها . ورغم احتجاجها بأن المسألة ليست مسألة توفير بل مسألة مزاج فلم يكن يخفى أنها تخلص للسجائر اللف لفضيلتين : الأولى أنها عملة صعبة التداول ، فليس كل الناس يحسنون لفها ، ومن ذا الذى يرضى أن يدخن سيجارة مبللة بلعابها ؟ والثانية أن عقب السيجارة اللف ، كما تصنعه ، لا يحوى من الدخان إلا «تنشيقة» ، فهى إذا رمت العقب وثقت أنها لا تضحى بشىء ، ألحظها وهى ترفع أصابعها عن منفضة السجائر فلا أشاهد تحتها إلا صاروخا مسلولا من دخان أسود أزرق . . وكان إعجابها بالتبغ الملفوف عذرها فى التعفف عن السجائر التى نعرضها عليها . . وهكذا احتفظ كل من الطرفين ـ والحمد لله ـ بكرامته وسجائره .

ولا تنتظر من الست زليخة أن تشعل سجائرها بالكبريت ، فكبريت هذه الأيام يضح منه عود ويخيب ثلاثة ، وهى تقول إن علب الكبريت «معفرتة» ، فكل استهلاك دؤوب تلحظه العين ولا يمكن دفعه هو عندها من عمل شيطان خبيث . . وهى كذلك لا تحب صوت ارتجاج آخر عود فى العلبة ينذر بضرورة شراء علبة جديدة ، والكبريت يكربها أيضا لأن لحظة استعماله هى بعينها لحظة فنائه . .

أليس من السلامة والحكمة إذن أن تستعمل القداحة ؟ لها شكل خرطوشة فارغة ، فلا عجب إذا هوت بكفها عليها مرتين أو ثلاثا أن يتفجر منها لهيب أهوج عال ، لونه كلون الدم ، تحوطه غلالة من دخان كثيف . . وقد حذرتها مرارا من أخطار هذه القداحة غير المأمونة ، وأنها قد تحرق شعرها ورموشها ، أو تنشب نارها فى ملابسها ، فكانت تقول إنها تنفعها أيضا فى إنارة بير السلم حين تعود لدارها .

تأتى إلينا الست زليخة قبل الغروب وتتربع على الكنبة كأنها تقول :

– أنا هنا حتى نهاية البرامج !

وقد طمأنتنا منذ أول يوم أنها ليست كييفة قهوة . . وإن كان لا بأس بفنجان واحد ، فهذا الحد الأدنى عندنا للإكرام هو فى ملتها واعتقادها الحد الأقصى ، وأكدت لنا أن أقل عشاء يضرها ، ولا ينطبق هذا القول على الفاكهة ، إذا كان لد.يا شىء منها ولم نخفه عنها .

ولم أرها إلا على رأسها منديل أزرق باهت ، تحته شعر أشعث أما ملابسها الخارجيه فيتمثل فيها نجاح عظيم فى التوفيق بين غايتين متنافرتين : النظافة ، فى الحدود المعقولة طبعا ، وصيانة القماش من التلف لفرط الغسيل ، أما ملابسها الداخلية فقد سمعت من الجيران الذين تطل أسطحهم وعلى دارها أنها . . كنافة ! . .

والست زليخة تسكن بمفردها ، وحدها ، ليس معها جنس إنسان أو حيوان ، فى دار كبيرة من بيوت زمان . . من الباب إلى حجرة نومها فى الطابق الأول طريق مرسوم كالمدق وسط أراضى الحيضان عند الجفاف ، على جانبيه تيه متروك لنفسه ، تفعل به الأقدار والفيران ما تشاء .

لم أر قط فى يدها نقدا ، ولم أسمعها تذكر أنها اشترت شيئا.ولم تتطلب فراسة الست زليخة وقتا طويلا لدراسة معيشتنا ونواحى إسرافنا ، فهى لا تبرحنا كل ليلة الا بعد أن تسألنى أنْ أجمع لها بعض الصحف القديمة المبعثرة فى منزلنا هنا وهناك وينتهى أجلها فى صفيحة القمامة ، فكانت إذا أخذت الصحيفة فردتها وأعادت تطبيقها بعناية فبدت فى يدها شيئا قيمًا رُدت له كرامته وأحسست فى قلبى بحسرة لطيرانه من يدى .

تقول ورق الصحف ينفع فى المطبخ ،وللدواليب ، وتسد به الخروق ، ويرش بالبترول وتلف به ملابس الشتاء لحفظها فى الصيف ، وهو ينفع عند الشراء من الباعة السريحة فهو أخف من ورقهم الثقيل فى الميزان ، وليس كمثله شىء يقى الصدر من البرد ، دع عنك سند المائدة العرجاء ، والنافذة التى ضاع «شنكلها»وتنظيف الزجاج ، وتلميع المرايا ، ومسح الحذاء .

ورفضت الست زليخة بطبيعة الحال أن تضيف أنه إذا تكوم يباع بالأقة أو يقايض عليه ، ولكنها نظرت إلى نظرة ضاحكة وقالت :

- وينفع أيضا فى أشياء أخرى . .

لم أفهم وقتئذ ماذا تعنيه وحاشا لله أن تكون الست زليخة الطاهرة المتدينة ، قد تفرنجت فى آخر الزمان . .

* * *

ومرت أيام فإذا بى أكتشف أن حياة الست زليخة تنطوى على مأساة مؤلمة . ؟ إنها تملك بضعة أفدنة فى مديرية البحيرة يطمع فيها بعض أقاربها

وهم من الأشقياء الجفاة ، وقد هددوها بالقتل أكثر من مرة .

ولما توثقت بيننا الصلة واستلطفت حديثها واستخففتُ دمها تجرأت وعرضت عليها فكرة خيِّل إلى أنها الحل السعيد الموفق .

قلت لها ذات يوم :

– لماذا لا تتزوجين فتجدين بذلك رجلا يحرسك ويريحك من مخاوفك ؟

ولماذا لا تتزوج ؟ إنها رغم قربها ـ سواء من الأمام أو من الخلف ـ من تمام الحلقة الخامسة من العمر ، ورغم إصابة عينيها برمد يسيِّل منها الدموع مدرارا ، في الليل والنهار ؛ فإن ثيابها تخفى جسدا لا يزال يحتفظ بشيء من البضاضة والجاذبية . . هو هكذا كما يبدو على الأقل من ملابسها التي ضاقت عليها من الصدر والعجز . .

اعتدلت الست زليخة في جلستها واعترفت لنا في شيء من الزهو والافتخار ، وإن كان فمها يبتسم بازدراء ، أن العريس حاضر لديها ، تحت يدها ، وأنه يلحف عليها بالرجاء وهي تتأبى .

– ولماذا يا ست زليخة ؟

– حكايته كالهم على القلب . .

هو من أقربائها البعيدين ، فرع القاهرة لا فرع البلد ، ولكنها لا تراه إلا كل حين ومين ـ اللهم إلا إذا احتاجت إليه ليقضى لها حاجة في دواوين الحكومة ، فيأتى لها مهرولا ، يسعده أن يخدمها ، فالقرابة عنده صلة حنان ومودة ، فما بالك بالولايا ؟ لا يخيب رجاءها ، وينسى المرات العديدة لتى

يطرق فيها بابها فلا يجدها فى دارها ، إن صدقا وإن كذبا ، وإذا دخل وقت الغداء لم يظفر إلا بفنجان قهوة . . بن خفيف ! . .

لم تسأله ماذا يأكل ومن يغسل له ملابسه ، والله وحده يعلم كيف يعيش ، هو أرمل عتيق ، يعيش بمفرده فى حجرة صغيرة ولولا رأفة بعض جاراته لأكله العت والبق . له بنت مات عنها زوجها وخلف لها زربة من العيال ، فيهم من هو فى المدارس الثانوية ، وفيهم من هو فى المدارس الابتدائية ، وفيهم من هو فى رياض الأطفال ، ومنهم من لم ينزل عن الكتف ، وآخر لا يعلم الا الله وحده جنسه وحظه . . فكيف يصرف عليهم وهو موظف صغير مرتبه لا يزيد عن عشرة جنيهات شهريا .

ترك حجرته وأقام فى منزل ابنته وأصبح نصيبه فى الحياة نصيب أحد أيتامها أو أقل قليلا .

لم يبد عليه فى يوم أنه غاضب من الست زليخة ، لأنها وهى قريبته الموسرة لاتمن عليه بين حين وآخر بمبلغ صغير يقيم أود أسرته الجديدة وإذ يخشى لو غضبت أن تقطعه ، وفى قلبه أمل متجدد أن يفتح الله عينيها ويديها فترى كما يرى هو أنهما لو تبادلا حمل المشاكل لارتاح باله وبالماء سيجد عندها بعض ما يبل به ريق أحفاده ، وستجد عنده الأمن الذى نقصها ، وإن قلبه والله ليرتجف خشية عليها من تهديد أقربائها فرع لبلد ، ولو ضمن لها السلامة مع بقائه بعيدا عنها فقيرا لما تقدم لها بطلب الزواج منها . . نوازعه خليط من طيبة وطمع ، ورغبة مكتومة فى أن يخلع ثياب الذل ليلبس بدلها ثوب البطل ، ووراء كل هذه النوازع ذلك الداء القديم الخبيث الذى لم تخل منه الحياة فى عصر من العصور ! داء تملق الفقراء للأغنياء !

وسخسخت الست زليخة من الضحك واستمرت تقول :

– لقد أكد لى فى بدء المفاوضات أنه سيكون لى نعم الخادم الأمين الوفى ، والحارس الذى لا يغمض له جفن ، وسيحيطنى بعنايته ومحبته ، وسيكون طوع بنانى ورهن إشارتى ، الأمر أمرى والكلمة كلمتى .

ولكنه لم يخف عنى – وهذا هو مربط الفرس ! – أنه غارق فى الديون لأذنيه ، ومرتبه مرهون لشهور عديدة قادمة ، وفهمت أول الأمر أنه يريد منى أن أتكفل أنا وحدى دونه بمصاريف البيت ، من كل وشرب ، ولو سكت عند هذا الحد لقبلت عذره ، وقلت الأكلة التى تكفى واحدا تكفى اثنين ، ولابد للدين من أن ينقضى فى يوم من الأيام ، ولكن إذا به يتكشف عن حماقة بالغة فيطلب منى – إذا تزوجنا – أن أدفع له أيضا ستة جنيهات شهريا – مصروف يد – هكذا قوله ، ولم يشأ أن يعترف أنها ستضيع على أولاد ابنته ، كأننى أنا التى مكلفة بإعالة أولاد المرحوم زوجها . . شوبش ياعمر ! وهل جننت حتى أقبل شرطه ؟ ستة جنيهات فى الشهر الواحد ، هذا إيراد عزبة ، تنزل له من السماء . . فمالى أنا ولهذا و«أشيتى» رضا والحمد لله . .

* * *

وجاءتنا الست زليخة ذات مساء وهى مضطربة مصفرة الوجه ، محلولة اللسان ، لا تسكت إلا لتبلع ريقها ، لقد أسرع إليها فى الصباح مستأجر أطيانها ينذرها بأن أقاربها – فرع البلد – قد ائتمروا بها وأنهم يعدون العدة لتنفيذ تهديدهم لها بالقتل ، ولكنها رغم اضطرابها تصر على أن هذا الكلام فارغ طالما أكلت منه وشربت ، وذكرني حديثها بالسائر فى الظلام

يغنى أو يصفر ليطرد عنه الخوف ، فرثيت لها وأشفقت عليها وأخذت أحاورها وأداورها حتى قامت من دارنا وهى أكثر اقتناعا بضرورة الزواج من قريبها فرع القاهرة .

* * *

وبعد أسبوع تزوجت من شعيب أفندى وعرّفتنا به ، رجل يحمل كرشا كقِدْر العرقسوس ، لعله هو الذى يزحلق طربوشه إلى مؤخرة رأسه لحفظ التوازن ، بنطلونه مشمر كأنما يجوس أبدا خلال أرض موحلة ، عيناه صابرتان ضاحكتان ، لا ينقطع أملهما فى رحمة الله لا رحمة الناس . . وأصبحنا نراه داخلا خارجا فى أوقات معلومة . .

لم تغير الست زليخة شيئا من عاداتها ولا من زينتها ، ولكنى رأيت سيل دموعها يخف قليلا . . ولمحت فى نظرتها شيئا من رضى وهدوء ، وشبع ورى ، واللقمة فى يد اليتيم عجبة ! . .

كان الزواج فى اليوم العاشر من الشهر ، ففى أول الشهر التالى قدمت له أربعة جنيهات ، فثار شعيب أفندى واحتج بشدة لأن الاتفاق كان على ستة جنيهات فى أول كل شهر ، وهذا هو الشهر قد حل فلابد من أن يقبض ستة جنيهات كاملة . .

أجابته الست زليخة بهدوء شديد أن الزواج تم فى اليوم العاشر من الشهر الماضى ، وهذا شىء لا سبيل إلى نكرانه ، فهو مخير ، إما يأخذ الجنيهات الأربعة ، وإما ينتظر إلى اليوم العاشر من الشهر ليستحق الجنيهات الستة . .

صرخ شعيب أفندى :

– هو أنا عجوز باليومية ؟!.

أجابته الست زليخة بهدوء أشد :

– اللى أوله شرط آخره نور ، وآدى حكمته ، وآدى السما وآدى الأرض . .

أخذ شعيب أفندى الجنيهات الأربعة صاغرا وفوّض أمره لله .

وتوالت الأيام ومضى شهر وآخر واقترب ثالث ، فلاحظت على الست زليخة اضطراباً وقلقاً وحيرة وأصبحت جلستها على «الكنبة» لا تستقر على حال ، وجهها شاحب ، وعيناها زائغتان تقول :

– عجيبة ! أهى ضريبة مفروضة ؟ أهو معلوم ثابت عمرت الدنيا أم خربت ؟ أليس الوفاء شهراً وثانياً وثالثاً ، جميلا يستوجب ، لا أقول الرحمة ! - بل أقول النسيان ؟ شهر ورا شهر ، هاتى هاتى ، ما جلتوش حاجة غير هاتى ؟ ده سارعنى ومطلع على جتتى البلا ، وخلانى مش عارفه راسى من رجلى . .

أقول لها :

– ياست زليخة ! أنت رضيت بهذا من أول الأمر . .

فتجيب :

–آمنا وصدقنا ، لكن لم أطالبه بشىء من مصروف البيت ، صحيح غسيله ومكوته فى بيت بنته ، لكنه آكل شارب عندى ، وما شاء الله طقته رغيفين . . وان ماكانش فيه لحمه يزعل ويبوّز ، والله لو كنت على تل لاختل . .

وفى مطلع الشهر التالى نشب بينها عراك شديد دام أياما وانتهى بأن دفعت المعلوم . . ولكنها حين جاء الشهر التالى رفضت أن تدفع إليه مليماً واحداً ، لا ستة جنيهات ولا أربعة ، رفضت بحجة أن مستأجر أطيانها لم يسدد المطلوب منه ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فتركها شعيب أفندى - وهو يعلم أنها كاذبة فى ادعاء الإفلاس - وأرسل إليها ورقة الطلاق ، والحمد لله أن كان أهون رسم مالى مقرر فى مصر هو رسم الطلاق ، وهذه نعمة كبرى عسى أن لا يلتفت إليها وزير المالية . .

***

ومرت أيام نسينا فيها شعيب أفندى ونسينا التهديد . وجاءتنا الست زليخة ذات ليلة تمضى عندنا السهرة كعادتها وكانت فشتها عائمة ، كثيرة الضحك ، بشوشة الوجه ، كأنما تخلصت من عبء ثقيل . . وانتهت السهرة وخرجت تحت إبطها لفة من ورق الصحف ، وسارت فى الحارة إلى أن وصلت لباب دارها ، وأخرجت المفتاح وأدارته فى القفل ، سمعها بعض الجيران تقول :

- بسم الله الرحمن الرحيم . . ماذا جرى للقفل ، هل لعب فيه العيال . . يقطعهم . .

وانفتح الباب وأغلقته وراءها وكانت هذه آخر مرة رؤيت فيها بين الأحياء . .

***

فاحت الرائحة بعد ثلاثة أيام ، وكُسِر الباب فإذا بها مربوطة فى عمود السرير بحبال غليظة ، وقد حُشِى فمها بمنديل ، وطُعِن جسدها خمسين

طَعنه بسكين خائن النصل كان لا يزال ملقى تحت أقدامها . . الحجرة مقلوبة . . والحشيّات مفككة قد تبعثر قطنها ، والدولاب منكفىء على الأرض ، وعلى حافة النافذة زجاجة خمر شربها القتلة لا أدرى قبل فعلتهم أم بعدها .

ووصل وكيل النيابة ودخلت معه ، ومنعت شعيب أفندى من الدخول لأنه كان يبكى بدموع غزيرة . . وتجنبت النظر إلى جثتها المبتورة ، وأخذ المحقق يبحث هنا وهناك ثم رفع رأسه - لا عن عمد بل مصادفة - إلى السقف ، فوقعت نظرته على عرق من الخشب مفكك ، ورأى - ولا أدرى لماذا - أن محضر التحقيق لا يتم إلا إذا أثبت فيه معاينته لهذا العرق من الخشب ، وجىء بسلم وصعد عليه فإذا بين السقف والعرق فجوة بها لفافات من ورق الصحف فى حجم البنكنوت ، إحداها ملأى بورق الجنيه ، والثانية بورق الخمسة الجنيهات ، والثالثة بورق العشرة جنيهات .

وخيِّل إلى وأنا أغادر الحجرة أن رأسها قد استدار نحوى وأن نظرتها تلاحقنى بابتسامة ملأى بالسخرية والانتصار ، وأن شفتيها تتحركان وتقول لى :

- هل فهمت الآن فيم ينفع أيضا ورق الصحف القديمة !

وراء الستار

من نعم الله ـ سبحانه ـ عليه حين ابتلاه بهوس المسرح والسينما أن ابتلاه في الوقت نفسه بضيق ذات اليد ، فهو في المسرح ينحط في مقعد خلفي فلا يضايقه صوت الملقن ولا الطلاء البشع الذي يكسو وجوه الممثلين والممثلات ، وإذا دخل السينما هرول شوطاً طويلا ، ثم جلس في مقعد يشعر فيه بأنه يشارك أبطال الفلم حياتهم : همسهم له وحده ، وابتسامتهم تحية يخصونه دون الحاضرين بها .

وهو أيضا مشغوف بالمسارح الاستعراضية ، إذ يجد في موسيقاها وتهريجها وراقصاتها أشباه العاريات نشوة لروحه المتعطشة للمرح .

ودخل أحد هذه المسارح ذات مساء وهو هامد الجسم متعب الروح تدل نظرته المنطفئة على الهوة الكبيرة بين آماله وأوجاعه ، وقارب البرنامج نهايته وعزفت الموسيقى لحناً معروفاً ، ثم ارتفع الستار عن فتاة شقراء ، لم تزدها صبغة الشعر إلا قبحاً يغم النفس ، شاهد من قبل كثيرات من

أمثالها ، لا يجد في تبذلهن أقل متعة ، بل هو يرثي من قلبه كل الرثاء لهذا الصنف الجديد من الرقيق الأبيض : شموخهن ذلة ، ومرحهن إعياء ، وابتسامتهن متاع . .

وكاد يحوّل بصره عن الراقصة ، فحركاتها مفتعلة ، وقفزاتها نكراء ، ولا فتنة في ثوبها الفضفاض الرخيص ، الذي شقه من أمام مقص عابث فكشف عن ساقين في اصفرار جثث الموتى ، يموج عليهما النور والظلال . . وضحك في سره إشفاقاً عليها وهو يقول «تتعب نفسها في لاشيء !» وفجأة أزاحت الستار الجانبي يد يلمع فيها خاتم ، وخرج من ورائه شاب طويل القامة ، ممشوق القد ، هو صفحة مُزّقت من (ألبوم) الخياطين ، بذلته السوداء ذات الذيل قد ركّبها على جسمه كواء صبور ، وربطة عنقه البيضاء قالب من المرمر ، والسلسلة الفضية المدلاة إلى جيب سرواله قيست بالملليمتر . . ولولا خط الفرق الناصع كأنه مرسوم بالمسطرة لما اختلف شعره في لونه ولمعانه وتماسكه عن حذائه المصقول .

وقف الشاب لحظة وقد رفع كتفيه ، وقطّب حاجبيه ، يرمق الفتاة كما يرمق الصقر الحمامة ، وزادت الراقصة حركاتها واضطرابها وأخذت تذرع المسرح جيئة وذهاباً ، ثم قطعت الموسيقى دقة عالية من الطبلة الكبيرة فانقض على فريسته وطوقها بذراعيها ، فجفلت منه ، فلاحقها وأطبق عليها من جديد ، وخرست الطبلة وارتفعت أصوات الكمان بلحن بطيء ناعم فإذا به يُسيّرها إلى الأمام وإلى الخلف وهي خاضعة بين يديه وإن كان الغضب قد كسا وجهها . ولكن على من ؟ يالله ! ما هذه الرجونه ! وما هذا السلطان ! استيقظ صاحبنا من سباته وامتدت رقبته قليلا ، وجه هذا

الراقص وجه صارم ، وشفتاه مطبقتان ، وعيناه قاسيتان ، ولمساته رغم نعومتها تنبىء بأنه اعتاد أن يأمر فيُطاع ، وانفلتت منه الفتاة مُعْرضة عنه ، فلم يبال ، وانصرف عنها ودار على نفسه مختالاً وقد ثنى ذراعيه وراء ظهره ، كهذه الديكة المُرَكَّبة على المداخن حين تضربها الريح . ثم اقترب منها وجذبها إليه جذبة لو كان عندها بقية من الكرامة لصفعته من أجلها على وجهه ، وتمتم صاحبنا يقول «هكذا المرأة حينما تحب» . شدَّها ورفع جسمها على كفه فاستسلمت كأنما ترقد على فراش وثير ، أما ساقها المدلاة فهى بعض الدلال ، وأخذ يدور بها . هل يريد أن يُدَوِّخها أيضا ؟ ثم أنزلها فجأة إلى الأرض فلم تترنح الماكرة أو تغمض عينيها هنيهة ليرتد إليها بصرها من زوغانه ، بل هبطت فى خفة الريشة وعلى وجهها ابتسامة النصر واللذة . هذا أول الرضا والصلح .

وبلع صاحبنا ريقه وتحرك فى مقعده قليلا ، هو سعيد لأنه وجد فى هذا الراقص خير تعبير عن عواطفه وعن آرائه فى المرأة ، هى حيوان لا يخضع إلا للسيطرة ، ولا يؤخذ إلا بالعنف كما كانت تؤخذ جداتها من ساكنات الغابات ، ولهذا فإنه حين يتعرض للفتيات يقابلهن برأس شامخ ووجه متجهم ، وإذا ظلت حياته إلى اليوم خالية من الظفر فى معارك الحب فيكفيه رضا أنه لم يذل لامرأة . حقاً ، إنه جرى وراء بعضهن وفى قلبه لهفة وتضرع ، وعلى لسانه ألف استجداء ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا من قبيل التجربة أو التسلية ، وأما ارتداده خائبا كل مرة فشىء يحمد الله من أجله لأنه يحفظ عليه كرامته . .

وأَنَّتْ أوتار الكمان أنينا رقيقاً سيالاً ، فإذا بجسم الفتاة يكاد يلتصق بجسم الفتى وذقنها بذقنه ، والتفت ذراعه كالأفعى حول وسطها ، وسمت

كفه إلى ما بين نهديها وخيل للناظرين أنهما نسيا العالم والمسرح ومن فيه . .

نعم ، إن هذا هو الامتزاج والحب الذى من أجله وحده خُلق الرجل ، فنسى صاحبنا اراءه ومبادئه وسرح ذهنه ، فإذا به يرى نفسه بين يدى امرأة طيبة القلب ، رقيقة اللمسة ، رقيقة الإشارة ، ناعمة الصوت ، تلفه كما تلف أغصان الشجر إنساناً ضالاً فى حمّارة القيظ . من أنت ؟ وأين أنت ؟ أياً تكونين ، وأنّى تكونين ؟ فأنا أنتظرك ، وسأجلس بين يديك أعترف بأن كبريائى جراح أخفيها ، وأن رأسى لم يشمخ إلا لأنه لم يجد صدراً يستند إليه ، ولو كشفتِ عن قلبى لوجدت معيناً من الحب والوفاء لا ينضب .

ونسى صاحبنا حكمه على الراقصة بأنها قبيحة المنظر مبتذلة ، ورضى بأن يرى فيها فتاته المنتظرة ، ولكن فتاته سترتدى ثوباً لم يعبث فيه المقص ، ولكنها ستنسيه الراقصة فى رشاقتها ودلالها ، وتنقلها السريع بين الغضب الكاذب والرضا الجميل . . ولكن هيهات ! أنى له كل هذا ، إنه فتى خجول ، منطو على نفسه ، بل هو مخلوق عجيب ، كأنما يتكلم بذهنه الثرثار ، ويفكر بلسانه الأخرس ، وشاء المولى ألا يجود عليه كما جاد على هذا الراقص بالوسامة والرشاقة وقوة الإرادة ، واختلطت فى قلبه عاطفتان متناقضتان : إعجاب بالراقص وكره له ، وندم على مجيئه للمسرح ، وود لو أنه كان قد ذهب إلى السينما ، فهى بلسم النفوس الحزينة التى تشتكى الوحدة .

وبدأت الموسيقى تخف شيئاً فشيئاً وأقدامهما تتثاقل معها ، حتى انتهى اللحن وهما على وشك أن يتبادلا قبلة خاطفة ، ومالت الفتاة نحو الأرض

وثنت إحدى ركبتيها لتحيى الجمهور ، أما الفتى فقد ظل ممسكاً يدها ، وحنى رأسه قليلا ثم رفعه فجأة وهو يبتسم . . وأسْدل الستار . .

***

خرج صاحبنا يتنزه كعادته فى عصر اليوم التالى ، وسار وحده فى الطرقات متمهلا وهو مُنكَّس الرأس ، وفى قلبه إيمان خفى بالمعجزات ، ومرت به فتاة وثانية وثالثة ، ولكن لم تحس به واحدة منهن .

ووقف أمام واجهة متجر يعلن عن ورود نوع من الجوارب رخيص الثمن ، فدسَّ يده فى جيبه ، وعدَّ نقوده ، وتوكل على الله ودخل ، ولم يكد يمر بين البائعين حتى وقعت نظرته فى قسم المنسوجات على اثنين من الزبائن جالسين وجها لوجه فى مقعدين أمام البائع : سيدة عجوز أطبقت يداها على محفظة قديمة كأنها تخشى أن تُختطف منها ، وعلى رأسها قبعة من القش الأسود اللامع على شكل خوذة ، وبين يديها شاب أصلع محنى الظهر ، مصفر الوجه ، كسير النظرة ، شاحب الجفن ، أصابعه الطويلة النحيلة الناتئة العظام فيها وجل الكلاب الضالة ، قال صاحبنا لنفسه : أين رأيت هذا الوجه ؟ أين ؟ أين ؟ وفجأة تذكر ، هذا هو الراقص البديع بعينه . ولكن أهذا ممكن لم تكن لمعة العين إلا من الكحل الأزرق ، والشعر الأسود مستعار ، وبهاء الوجه طلاء ، والخاتم ألماس بيرة .

وقف صاحبنا ذاهلا برهة ، ثم اقترب منهما وجعل ينظر إلى الأقمشة المعروضة وهو يسارقهما النظر والسمع فإذا بها تقول له بصوت تخالطه موسيقى الربو :

- لا تتعجل ، ولنحسب حسابنا ، فالقماش غال ، ويكفيك أن تشترى مترين وثمانين سنتيمترا . .

- أليس من الخير أن نشترى ثلاثة أمتار كاملة ، فقد احتاج فى المستقبل إلى تغيير «الياقة» .

- الآن عقلت ! وأين كنت حين هجمت عليك هذه الدنيئة - عليها لعنة الله - ومزقت « فراكك » وأنت ولى نعمتها ، وكيف لم تنقذ نفسك منها ؟

- قلت لك يا أماه ألف مرة أننى خفت أن يرتفع الستار مرة أخرى إذ كان الجمهور لا يزال يصفق . . والعامل المكلف بشد الستار محجوباً عنا ببعض ألواح الديكور . .

- أنت أحمق ! كان يجب حين أصرت على فسخ عقدها معك وأنذرتك أنها تراقصك ليلة أمس آخر مرة أن تصفعها على وجهها ، وتطردها خانتك من أجل زيادة قروش قليلة فى أجرها ، ولكنك كالأبله هددتها بتمسكك بالعقد ، ولماذا ؟ ألم يتركك كثيرات غيرها ؟ فلماذا اثرت هذه المرأة ؟ عساك سقطت فى حبائلها وفَتَنتْك ، وظننت أنك تحبها ؟

فأجابها بصوت حزين فيه وسوسه الكذب :

- تعلمين يا أماه أننا لا نخلط فى مهنتنا بين العمل والعاطفه .

- هذا درس لك . وبعد فأنت لم تخسر شيئا ، ولكنى أنا التى أضعت جهدى وتعبى فقد أبقيته لك جديدا عشر سنوات واحتفظت به كإنسان

عيني ، ولكنك أضعته في طرفة عين ، بفضل هذه الساقطة ، وإذا دامت حماقتك فخير لك أن تترك الرقص الكلاسيكي إلى الرقص البهلواني ، فهذا أليق بك وأسلم . .

وخرج صاحبنا من المتجر مهرولا ، وسار في الطرقات يتعرض للفتيات ، تارة بابتسامة ذليلة ، وتارة بكبرياء ، وهو رافع الرأس متجهم الوجه . .

ولا يزال إلى اليوم في حيرته .

(مجلة «الكاتب المصري» ، العدد ٢٢ ، يوليو ١٩٤٦ ، ص ص ٢٤٣ - ٢٤٦)

ذكريات دكان

١ - الرجل

ارتاب طبيب المركز في مرض فلاح عائد من الإسكندريـة وظن أنه مصاب بالطاعون ، فانتدبت وزراة الصحة جماعة من أطبائها لمقاومة هذا الوباء في منطقتنا ، فرحنا ، نحن زبائن قهوة المحطة ، بضيوفها الغرباء ، واتسعت بهم على غير عادتها حلقتنا الملتفة حول المائدة ، عليها الأكواب والأقداح .

ولكننا رأيناهم – لدهشتنا وخجلنا – ينسون ترحيبنا بهم – ويقتصر الكلام فيما بينهم ، لا يدور إلا على الأمراض والعلل والأدوية والعلاج .

– ده شغل ؟ خمسماية حقنة في يوم واحد ؟

– ليه ، دي حاجة مدهشة ، أنا شفت حـالات ، عمرك مـا كنت تشوفها في مصر . . شفت هيدرو كيفريس يجن ، وحالة تيتانوس ناوي أبلغ عنها .

- النهار ده شفت حالة دمها خفيف ، فلاح أساله وهو راقد أي جنية يؤ له فيقول لي «جنبي البحري» .

وانتهت السهرة وتفرقنا وسرت أنا وصديقي رؤ وف المحامي عائدين لبيوتنا ، كنت أسأل نفسي : هل الهيدرو كيفريس رجل أم امرأة ؟ لم أسمع من ضيوفنا اسم مريض واحد ، فقلت لرؤ وف :

- لعلك توافقني على أن هناك شيئا من التناقض بين فخر الأطباء بأن المرضى يبعثون على أيديهم بعثا جديداً وبين ميلهم إلى إلغاء النفس البشرية وشعورها من أجل الوصف العلمي أو الاسم اللاتيني«للحالة» لعل عذرهم إنهم يألفون العلل والأمراض والآلام ، لا يهمهم من المريض اسمه أو نسبه أو متاعب حياته ، بل تموجات حرارته على الرسم البياني .

فابتسم رؤ وف ورأيته سارح الذهن كأنه يسترجع ذكريات عزيزة لديه وإذا به يميل بوجهه نحوى وعيناه السوداوان تلمعان بشيء من التهكم والمغفرة وأخذ يحدثني وقد ثقلت خطانا :

- حينما جئت القاهرة لأدخل مدرسة الحقوق أقمت في منزل واحد مع شاب من بلدياتي ، اختار دراسة الطب ، هو الدكتور توفيق - وأنت تعلم مبلغ شهرته اليوم - لم يمض علينا في مدارستنا أسبوع واحد حتى كنت لا أناديه إلا بلقب دكتور ، أملأ به فمي فيرد لي الثناء بمناداتي : يامتر !

ووحدت المعيشة المشتركة - في السنة الأولى من صحبتنا - أفكارنا ومزاجنا ، ولكن الدكتور توفيق بدأ بعدها يلتزم في حديثه معي لغة نصفها إنجليزي ونصفها لاتيني ، وأصبح حديثنا عن الأكل وعناصره ، وعن أصدقائنا وأمراضهم . وحينما سمع له بدخول المستشفى كان الهم يضني

جنبية إذا ساءت حال مريض فى قسمه تكون أول كلمة يقابلنى بها عند رجوعه :

- الحمد لله ، التهابى الرئوى أحسن . .

ولا أنسى اليوم الذى مات فيه أحد مرضاه ، فإنه صد عن الأكل حتى كأنه فقد عزيزا لديه أو على الأقل كأنه خسر بحماقته مبلغا كبيراً فى القمار . .

واستغل بعض جيراننا الفقراء طالب الطب ، لأن استشارته لاتكلفهم شيئا ولكنهم كانوا غير مخلصين فى الوثوق به ، يزوره المريض مرة ثم يختفى - إلا مريض واحد هو المعلم شعبان ، صاحب الدكان بأسفل المنزل ، إذ كان لا مفر من أن يقابل صديقى فى دخوله وخروجه . .

ولما فحصه توفيق أول مرة لم يجد صعوبة فى تشخيص المرض فهذا الاصفرار الذى يكسو وجه الرجل ، واضمحلال بصره وثقل شفتيه إذا تكلم ، وهذا الظهر الذى يجره للانحناء صدر ضعيف يمزقه سعال حاد ، علامات بينه للإدمان على المخدرات - على الأفيون - ومع ذلك فقد نقر صديقى نقراته المعروفة على عظام صدره ، وتسمّع أنفاسه ، وجسَّ نبضه وقاس ضغط دمه ، وضرب بحافة كفه ركبتية فانتفضت قدمه ، وأطل فى عينيه ، وقلب جفنيه وضغط لسانه بملعقة حتى كاد الرّجل يُفْرغ معدته .

- انت بتستعطى أفيون ؟

لم ينكر المعلم شعبان إدمانه على الأفيون ، وكان دفاعه أنه اعتاد عليه منذ صغره وأن الأفيون لا يضر ، ولا شىء مثله يشد الأعصاب ويُروِّق

الدم ، أما نحفه فمن أثر صفراء فى كبده ، والسعال سببه كثرة التدخين ، ولو تخلص من البلغم لارتاح صدره . .

– إذا كنت عاوز تخف ، لازم تسمع كلامى . عندى لك دواء يبطل الكحة ويخليك زى البمب . بس لازم تسيب الأفيون .

– أهو ده الكلام الدوغرى . . مش الدكتور النصاب النصرانى اللى رحتله السنة اللى فاتت فى الأزبكية ، قال عندى سل . . شوف المغفل ، لكن أناح اسمع كلامك يادكتور وربنا يقويتى .

وساعة منحنا المعلم شعبان ظهره زال اسمه من حديثنا وأصبح تسمم المخدرات . . أو الربو . . ويبدأ الدكتور درسه :

– أمامك مثل جميل لتسمم المخدرات ، إن الأفيون الذى يبلعه هذا الرجل فى يوم يكفى لقتل شاب فتى إذا تناوله لأول مرة . ويُخشى على هذه الحالة من اختلاط الذهن وكثرة الأوهام واضطرابها وفرحها للتافه ، وتوهمها الشر من أبرياء ، ثم جاء الربو وأصبح يدور مع الأفيون فى حلقة مُفْرغة : الربو يستنيم للأفيون ، ويطلبه بإلحاح ، فإذا أصابه ضعفت مقاومته للنوبة التالية ، وزاد جوعه للأفيون ، وهكذا دواليك . . سأتتبع هذه الحالة ، فقد تنفعنى فى الامتحان . . وسأبذل كل جهدى فى علاجها ، مستعينا بأساتذتى . .

ولكن «المنطق» جعلنى أشك فى نجاح صديقى إذ ستحاربه شيخوخة الرجل ، وعادته المتحجرة ، بل ودكانه الذى يرتزق منه .

***

لا أنسى إلى اليوم الدكان الذى فتحه المعلم شعبان للاتجار فى مخلفات السلطة العسكرية ، لا يمر ببالى إلا تذكرت بوضوح حياة القاهرة إبان الحرب العالمية الأولى وما كان يتعاقب عليها من صور جديدة غير مألوفة .

لقد ظل القاهريون منذ انقضاء هوجة عرابى زمنا طويلا لا يعرفون الحرب ، ولكنهم سرعان ما ألفوا الزحام لقراءة منشورات القائد العام ، والزحام لشراء البترول ، والزحام حول بائع جريدة «الشعب» ولو كانت بيضاء ليس فيها سطر واحد إلا عنوان المقال المحذوف وامضاء كاتبه . . هل تذكر ؟

وأنستهم هذه الحياة الجديدة التى تجرهم إلى غاية مجهولة أن يفطنوا لما فى فتح دكان يبيع مخلفات الحرب والواقع فى أحد شوارع القاهرة المطمئنة من تناقض وغرابة . . لا غرابة ولا دهشة . . لا نرى الحرب ومع ذلك - هل تذكر ؟- نستنشق جوها البغيض . لا ننام فى خنادق ومع ذلك فإن أعصابنا متوترة نضطرب للهمس وتتلقف الإشاعات . . لم تكن القاهرة أرض معركة ولكننى أذكر كيف كنت أستيقظ فى بعض الليالى على زمجرة السيارات ، يلاحق بعضها بعضا ، تحمل الهنود والأستراليين إلى القلعة ، فأجد فى سكون الليل معنى جديداً ، هو الجمود والتيقظ للإنصات إلى زئير موقعة هى جد قريبة . . لاأسمع شيئا ، ولكن أذنى تطن وتتوهم أن الطنين إنما هو صدى قصف المدافع البعيدة فى موقعه لاتتبينها مهما جهدت حواسها ، وتظل فكرتى عنها مبهمة ، ويتملكنى شعور كأنه لازمنى طول حياتى - هل الحرب من غرائز الانسان ؟- شعور بجبروت الحرب وسلبها البشر عقلهم وضميرهم ، فإذا عملهم ونشاطهم وشجاعتهم مُسخرة

للشر . . وإذا بهم باقون على الدهر ، مجموعة من العَيّ والضعف والذلة تستحق الشفقة .

وكانت الصورة التى تؤلفها الألوان القائمة : الدردنيل ، منشور القائد العام ، التسعيرة ، قد كملت ونطقت بالقسوة والجبروت بفضل (رتوش) صغيرة . . وكان دكان المعلم شعبان الذى يبيع فيه مخلفات السلطة العسكرية أحد هذه الرتوش الصغيرة .

***

مكان صغير تستطيع أن تصل إليه مستعينا بأنفك لا بعينيك ، ولكن بأى ثمن ؟ تستقبلك رائحة المستشفيات المزدحمة ، فتملأ خياشيمك وينقبض لها صدرك ، تبعثها أكوام تكاد تصل للسقف من جاكتات كاكى حائلة اللون ، وحمّالات عسكرية ، وتلول من الأحذية القديمة والناموسيات المصفرة ، وعجلات الكاوتشوك الممزقة ، وعلب كثيرة من الصفيح . . تكاد كلها - هذه السلع الصماء - تنطق بأنها منهوكة القوى وأنها فقدت قيمتها ومعنى حياتها وأنها لا شىء سوى حطام معركة قاسية ذوت بشبابها .

ولكن المعلم شعبان - وكأنه ينتقم لتأثير هذه الأكوام على صدره كان له قلب لا يعرف الرحمة ، ويد تكره الهدوء . . فهى دائبة التنقيب بين الأكوام حتى إذا عثرت على الجاكته الكاكى أسلمتها إلى شقاء طويل تعانيه على جسد سائق عربة كارو ، أو حمّال أو بائع متجول ، ولذلك ترى الجاكتة ، وهى تخرج من بين الأكوام إلى لنور قد تهدم كيانها وتراخت وذلت للقدر ، كما تذوب قوى الدجاجة ويبح صوتها فى صرخة واحدة حينما

تشعر أن يد (الفرارجى) قد سقطت عليها مرة دون بقية الدجاج .

ومن العجيب أن هذه الدكاكين تناثرت فى وقت قليل فى الشوارع حتى ألفها القاهريون ، والأعجب أن بعض العامة مرنوا على استغلال السلطة العسكرية استغلالا بارعا كأنهم خبروا هذه التجارة طول حياتهم،علّمتهم حروب متوالية أسرارها ودقائقها .

لا أدرى أى مهنة كان يرتزق منها المعلم شعبان قبل أن يختار هذه التجارة ، ولكنك لو راقبته وهو يرتّب بضاعته،كل صنف على حدة ، ويقص الناموسيات ليبيعها طرحا للفقيرات ويقطع كعب الحذاء المشوه ليصبح خفا يمشى فى السوق أو يخلع الجلد ويبيع النعل إلى دكتور الجزم الشاوى بقربه على الرصيف ، لخيّل إليك أن السلطة العسكرية - كميكروب كبير هو بدوره مزرعة خصبة لميكروبات أصغر - خُلقت ليستغلها أمثال المعلم شعبان .

إلفه لها ليس وليد المعاشرة وإن طالت ، بل هى شىء فى لحمه ودمه ، بدليل هذا التلاؤم التام بين أكوام الجاكتات الكاكى المصفرة ووجهه الشاحب الحائل لونه ، وبين أكوام الأحذية ويلْغته الجرباء ، بل بين أكوام علب البلوبيف وعلبة دخانه الصفيح التى يضعها بالقرب من قلبه .

وليست الفصيلة التى ينتمى إليها المعلم شعبان بالقليلة العدد ، وقد لا يمتهن كلهم مهنته ، ومن السهل أن تكتشف صورة أخرى للمعلم شعبان إذا نشبت فى الشارع معركة بين فتوات الحى ، فسترى النزق وقلة الصبر يقلب متفرجا إلى خصم ، هو من أشد الخصوم تحمسا فلا عجب أن تكون إصابته أفدح الإصابات . وسترى الأعصاب الباردة التى تقف على

الحافة تنتقد المتضاربين ، وتنتقد المتفرجين لسكوتهم عن تفريقهم . . ولكن ثق أيضا أنك سترى شخصا لا يتكلم ولا يهمس ، لا يخاطبك ولا ينتظر منك أن تخاطبه ، بل هو يروغ من هنا وها هنا وهو محنى القامة يبحث عن الطواقى لتى طارت ، والمناديل التى سقطت ، والساعات التى وقفت دقتها ، وكلما طال أمد المعركة زاد حمله ، فإذا انتهت بصلح وتقبيل الرأس ، ابتدأ يوزع على المتضاربين مخلفاتهم فى ساحة المعركة ولست أجزم بشىء عن مآل هذه المخلفات إذا انتهت المعركة إلى قسم البوليس .

هذا الرجل مثال صالح للمعلم شعبان القاهرى فى ذيل ساحة الحرب ، فهو لا يشارك فى الحرب ، ولا يفهمها ولا يهمه انتهت بصلح أم على يد القسم ، مادام أن أحضانه تتسع لما يتساقط عليها من الجاكتات والأحذية والناموسيات . .

***

ولكن السلطة العسكرية لم تكن معركة هينة فى حارة ضيقة أو زقاق مسدود ، بل كانت دوامة واسعة شملت العالم وفرضت حركتها الهوجاء قسرا على الجميع ، كان المعلم شعبان حقا فى طرفها البعيد القاصى ، وظلت هى متغافلة عنه ، تستكين لمقاديفه يشق بها مياهها ، صابرة حتى يتزلق قاربه إلى حيثما يريد والمسكين لا يشعر أنه يُجرُّ فى الوقت نفسه إلى هاوية سحيقه ستحطمه تحطيما ، وأن هذه الأطراف البعيدة النائمة ستُطبق عليه وتدفعه إلى مركز المأساة وتبتلع فوهتها لحمه أو بعض لحمه بين الأجسام التى لا تُشبع جوعها ونهمها . .

فقد بادلته السلطة العسكرية بمكر وخبث استغلالا باستغلال ،

واختلست لنفسها ابن المعلم شعبان الوحيد لا يهمها أن تكون حياة فرد كفؤا لحطام بال من قماش ومطاط . . فإذا بالمعلم شعبان يرى نفسه وهو وسط دكانه فى الشارع الهادىء البعيد الذى لم تنفجر فيه قنبلة ولم تُطلق رصاصة وسط أشد المعارك جِنّة وهولا . .

وشمل هذا الانتقام الخبيث صديقى الدكتور توفيق أيضا ، إذ وجد أن الحالة رغم اعتنائه بها وإخلاصه لها وأمله فى تقدم شفائها قد ساءت فجأة وزاد انحناء المعلم شعبان نحو الأرض ، وصعد الرجل سلمنا ذات صباح وهو يتريث كل درجتين ينتظر انتظام تنفسه ، حتى إذا وصل إلى حجرتنا كان صدره كالقصبة المشجوجة ينفخ منها بهواء ينقلب أنينا خافتا . . فأقبل عليه صديقى يقوده إلى مقعد بجوار النافذة ويفتحها له ، ويومىء له أن يتنفس بهدوء وعلى مهل ، وشعرنا معا أن يدا قوية أطبقت فجأة على رقبته فازرقّ لونه وشخصت عيناه وانحدر رأسه على صدره يهتز اهتزازا متواليا سريعا متأثرا بالموجة تقفو أثر الموجة تتلاطم بين ضلوعه وتكاد تسمع رجتها كوقع حوافر الخيل الشاردة على كثبان من الرمل . . وكلما تلقى ضربة جديدة زاد انحناؤه ومال يجمع قواه كلها ليركزها حول صدره يمنعه أن ينفجر ، ويتلقف أنفاسه ويضغطها عليّها تكتم البركان الثائر ، ولكن عبثا !

وتظل أنفاسه كالمنشار الصدىء يغدو ويروح فى قلب شجرة عجوز . . أين الهواء المؤدب الصامت الذى تبعثه صدور الناس من هذا الهواء المجرم الذى يعبث فى صدره ، له سلاح فاتك يضرب به ذات اليمين وذات اليسار ، وأصبح شهيقه جرعة الغريق من الماء يعلم أن فيها موته ،

ومع ذلك يعب بها فمه ، وأصبح زفيره كقيء جائع يلفظ اللقمة التى لولاها مات من السَّغَب،ويظل هذا التلهف على الهواء ، حتى إذا دخل صدره فالحيرة كل الحيرة فى إخراجه ، والألم كل الألم فى كتمانه حتى تهدأ حركات رقبته وتشعر أن البركان قد خمد لولا بقية من دخان يخرج فى عمود ملتهب ، إذ ينتهى السعال بحشرجة كأنها فحيح الأفاعى ، وتكون أول كلماته (أف !) ويمسح العرق من على جبينه ويُروِّح بكفيه على وجهه ، ويحتاج إلى برهة يكون فيها إحساسه متبلدا وقواه خامدة أثر مجهودها حتى يستفيق إلى نفسه وينتبه لما حواليه وتبحث نظرته عنا وهى ذاهلة لا تدرى كيف رُدَّت إليها الحياة . ولما تمت استفاقته طفق يحدثنا كأنه قدم إلينا ليبث شكواه لا ليطلب دواء .

– أنا يادكتور ماليش فى الدنيا غير ولد واحد ، صرفت عليه دم قلبى. ولكن ياميت خسارة طالع ولد خيبان ، طالع فى الشبوبية والشطارة ، كام مرة اتخانق وراح القسم ، وكام مرة طلعت بالليل من جيوبه بونيات حديد وبلاوى زرقة . دخلته كافة صنعة خلقها ربنا ما فلح . . ومشى على حل شعره ، عياى ده سببه ابنى ، هو اللى طلع الصديد على عينى وخلانى أطفح الدِّردى وأطرش الدم . . لغاية ما كرهته ونفيته من بيتى وحلفت بالطلاق إنه ما هو داخله . قال حب يغيظنى راح كتب اسمه فى السلطة وتقول إيه فى قلب الأب ، ليلة ما سافر ما عرفتش أنام ، وعيَّطت فى المحطة زى النسوان ، ورجعت للبيت حزنان زى ما أكون راجع من ميتم .

فأخذت أهدىء روعه وأطمئنه على ابنه ، وقاطعنى توفيق يسأله عن الأفيون وهل هو ماض فى تناوله فأجابه :

- أقول لك الحق يادكتور أنا عاوز حقن مقوية والا دوا يفتح النفس وتعمل فىَّ معروف وتشوف لى حاجة تبطل المزيكة اللى بتزيّق فى صدرى .

وكان توفيق قد أعدَّ خطته وبدأ باعطاء الحقنة الأولى من ميكروب الربو ذاكرا لى بالإنجليزية إنه سيجرب إعطاء أكبر مقدار ممكن ولو أن كتب الطب لا تنصح بذلك .

وعندما أخذ يؤكد على المعلم شعبان مرة أخرى أن يمتنع عن الأفيون كان كأنه يسأله صَدَقةً أو إحسانا .

وكان للصدقة تأثير سيء على المعلم شعبان ، إذ لاحظت أن اهتمامه بعمله قد قل ، وبعد أن كان يشتغل بمزاج مبعثه الأفيون ، أصبح خاملا يهمل عمله ، فكان من قبل إذا دخل عليه زبون قاس طوله وعرضه بلمحة واحدة من عينيه أثناء الحديث ، ثم انفلت إلى أكوامه يهيل جوانبها حتى يظفر له بجاكتة لا تهبط إلى ركبتيه . . وكان صابراً فى عمله ، يشعر نحو سلعه بحب أبوى ، فلا يبيع الجاكتة إلا إذا أخرجها لضوء الشمس أمام الدكان ، ورفعها بيده ، ليرى المشترى مزاياها ، وهو لا يفتأ يصعد نظره فيها ويطيله ، ثم يديرها كما يفعل القصاب بذبيحته المعلقة يتحسسها بسكينه نخسة خفيفة لتدور أمام الزبون . . ولم لا ؟ أليست السلعتان جسدين قد خلا منهما الروح وأزيلت عنهما بقع الدم باعتناء ؟ ولكن المعلم شعبان أصبح الآن يجلس على مقعدة ويترك الزبون يختار لنفسه ما يشاء .

***

وأُعطيت الحقنة الثانية والثالثة ولاحظت أن صديقى توفيق مسرور لأن عدد نوبات السعال التى تصل إلى آذاننا من البركان قد قلت ، وعاد

المعلم شعبان إلى نشاطه واهتمامه بعمله ودكانه ليشترى أصنافا جديدة ويتوسع فى تجارته . . واستوقفنى ذات صباح وهو يبتسم مسرورا :

– ما شفتش ياسيدنا الأفندى التمثال الجديد اللى اشتريته قريب من ترزى مفلس ؟

وأشار إلى ركن مظلم فى الدكان رأيت فيه تمثالا خشبيا قديما على هيئة رجل ، من الطراز الذى كنا نراه أمام أبواب المتاجر الصغيرة فى الموسكى ويعجب له زبائن هذا الحى من الفلاحين .

فضحكت لضحكه .

وكاد المعلم شعبان يعود فى حديثنا مذكورا باسمه لا بلفظ الحالة أو «الربو» لولا حادثة شاهدتها برهنت لى على أن التحسن صحوة خادعة . .

ذلك أن مصادفة لا أذكرها جمعتنى ذات صباح مع المعلم شعبان أمام دكانه ، وكانت عدوى الاهتمام بمرضه وترقب شفائه قد سرت إلىّ وأخذت أفحص وجهه وعينيه ، فخيل إلى أن الوجه وجه أصحاء ، ولكن السأم تملكنى حين تطلعت لعينيه ، فقد زاد انغماسهما وأخافنى ما رأيته فيهما من معنى مبهم لا أدرى هل هو الوجوم أم القلق أم شرود الذهن وغيابه ، ورأيته يتكلم ، ثم يصمت برهة طويلة ، فإذا عاد للكلام حدثنى عن موضوع آخر جديد ، ولكنه بعد أن شرب فنجان القهوة التفت إلىّ فجأة وأشار إلى مدخل الدكان فرأيت التمثال الخشبى ماثلا بالقرب من الباب وقد ارتدى معطفا قديما وطربوشا متربا وأخذ المعلم شعبان يقول كأنه يحدث نفسه :

– والله عجيبة ياسيدنا الأفندى ، التمثال ده فى كسم ابنى وطوله وعرضه تمام ، وشوف البالطو لابسه وخايل عليه زى ما يكون مفصل . أهو ده بالطو ابنى عبده . وأنا كان مالى ومال التمثال ده . أشتريه ليه ؟ ساعة ما أفتح الدكان فى الصبح ألاقى وشه فى وشى أفتكر ابنى عبده . ولكن أقول إيه ، ربنا يخلق فى قضاه رحمة .

وأصبحت بعد ذلك اليوم كلما مررت على الدكان يخيل إلىّ أننى أرى فى التمثال حياة واضحة ، وكان تمثالا قديما تفككت مفاصله وانحلت أربطته فمال صدره إلى الأمام قليلا وتباعدت ذراعاه عن جسمه ينحدران من كتفين متصلبتين ، ولعل هذا التشويه هو الذى أضفى عليه فى نظرى حياته ، ولو كان كبقية التماثيل نظاما وحسن صنعة لظل طول حياته حشبا متينا . .

ويدُلُّ التمثال على أن بائعه رجل عامى الذوق ، إذ أعاد ـ بقصد تجديده ورَفع ثمنه ـ تلوين وجهه فزاد من صبغة الشعر اسودادا ، وطغى الطلاء على جبينه قليلا ، وبدَّل عينيه دوائر شوهاء ، وجعل لون حدقتيهما أصفر فاقعا ، ولم يكتف بذلك ، بل أراد أن يهبه منظر الفارس الشجاع فمقص طرفى شاربه حتى وصلا لخديه .

وقف هذا التمثال وسط دكان المعلم شعبان كأنه زائر متفرج . . ماله هو وهذا الحطام اللقيط ؟

وذات صباح ، وأذكره بوضوح ، لأنه كان أول أيام العيد ، سمعنا ونحن نفطر سعال المعلم شعبان فإذا هو أعمق غورا وأشد ترجيعا ، فتعكَّر وجه صديقى توفيق ورمى اللقمة من يده وقال غاضبا :

- لازم المغفل رجع تانى للأفيون .

وأسرع ليرى حالته عاد والغيظ يرهق أعصابه !

حالته زى الزفت ، حرارته مرتفعة وجات له نوبة إنما شديدة خالص .

ولما خرجت عرّجت على المعلم شعبان فإذا به على خلاف عادته قد ترك مقعده وقعد القرفصاء وأخفى رأسه فى فجوة ذراعيه المستندين على ركبتيه ، فلما ناديته ارتفعت عمامته الغبراء ، وبدا وجهه ممتقع اللون ، قد غاض منه ماء الحياة . .

- كيف حالك يامعلم شعبان ؟

فلم يتكلم ، وأشار إلى الدكان فالتفت فإذا بى لا أرى شيئا عجيبا ، فكرر إشارته وقال :

- شوف ، شوف اللى جرا لى .

فرأيت عندئذ التمثال الخشبى ملقى على الأرض ، وقد تباعدت ذراعاه . .

- خلاص ابنى مات ، جاله قضا الرحمن ومالقاش حيلة .

- كيف مات ؟ هل جاءك خبر ؟ جواب ؟

لأننى لم أستطع أن أتبيّن العلاقة بين سقوط هذا التمثال على الأرض وبين موت ابنه ، ولكنى بعد أن سمعت جوابه أدركت أن الرجل قد كثرت أوهامه وبدأ يخلط ويهذى .

- أبدا ، أنا فتحت الدكان الصبح زى العادة لقيت التمثال واقع وأنا سايبه إمبارح واقف وسليم ، معليهش ، ربنا عاوز كده .

فدخلت الدكان ، ولعلك تدرك مقدار تأثرى ورغبتى فى مسايرة أوهام الرجل إذا قلت لك إننى دخلت الدكان لا لشىء إلا لأرى حال التمثال ، وما كدت أميل فوقه حتى صدمنى الاصفرار الشديد المحيط بالعينين ، والنظرة الثابتة كأنها من حدقة ميت ، وبدت لى حافة شاربه كأنها فجوة لخد الضاحك ساخرا . .

ومرت أيام كثيرة والتمثال ملقى على الأرض والمعلم شعبان يرفض أن يقيمه على ساقيه ويضعه فى مكانه القديم ، حتى علمت ذات يوم أنه تلقى نبأ وفاة ابنه وفهمت من الجيران أن وفاته كانت ليلة العيد .

وظل الدكان مغلقا زمنا طويلا ، على بابه ورقة تنعى عبده إلى الجيران وتدعوهم إلى حضور المأتم فى الحنفى .

وزارة الدكتور توفيق فى منزله ورجع ضجرا ملولا يتهرب من أسئلتى واكتفى بقوله :

– وصلت الحالة إلى آخر دور ، وبدأت تهذى .

ولذلك حينما عاد المعلم شعبان إلى فتح الدكان قابلته بشىء من اللهفة ، فوجدت نفسى أمام شبح لماضٍ مؤلم ، فقد زاد نحول الرجل ونفر عرق فى رقبته واكتست يداه بزرقة المرض وثقلت خطوته وفقد كل دافع للحديث . ولم أر الملل يتمثل فى شىء كتمثله فى كلمة (نعم) التى يجيبنى بها المعلم شعبان كلما حدثته.وكان أول عمل صرف إليه اهتمامه أن أقام التمثال الخشبى معتدلا مكانه ومسح التراب العالق بمعطفه ، وعندئذ هدأت أعصابه وعاد إليه التفاته لعمله ، وكان يقول لجيرانه :

– أهو ربنا بعت لى ابنى لغاية عندى ، أعوز إيه أكتر من كده . .

وسمعت منهم أن الرجل إذا أقبل صباحا وفتح الدكان كان أول ما يشغله أن يدور حول التمثال ويراقب حاله ويفحصه ، وقد يمضى معظم نهاره لا يرفع عينيه عن التمثال الخشبى . أما الجيران فقد تواصوا بتركه فى وهمه ما دام أنه واجد فيه العزاء والسلوى .

ولم أدر أن خبل الرجل قد استفحل إلا يوم أن فزع من بائع بطيخ كان يقطع أمام الدكان بطيخة بسكين طويل ، إذ اعتقد أن البائع يقصد قتله وأقسم ليشكونه إلى القسم .

***

٢ - الليلة

ودخل الشتاء يحمل إلى الصدور الضعيفة إنذارا جديدا يثير ما نام من ذعرها أثناء الصيف فتعلو من جديد صرخاتها الخافتة وحشرجتها الغليظة مستنجدة مستغيثة .

لم ييأس صديقى توفيق من حالة المعلم شعبان ودأب على إعطائه الحقن ودفعته الثقة بالنفس إلى رسم منهج لمستقبل مريضه . .

- الصدمة صعب صحيح عليه ، وستسبب شيئا من الانحطاط فى قواه العقلية ولكنه سينسى مع ذلك وفاة ابنه كما نسى يوم توديعه غضبه وحنقه عليه.

وأسلم المعلم شعبان إلى صديقى توفيق جسده ، فى غير اهتمام أو

مبالاة ، وكنا إذا أصبحنا وسمعنا سعاله علمنا حالة هذا الرجل المسكين فى يومه إن خيرا وإن شرا

ولكن لم يمض زمن طويل من الشتاء حتى حدث فى ليلة ممطرة ونحن نطالع كعادتنا فى حجرتنا ، والهدوء قد أرخى سدوله حوالينا لولا قطرات المطر المتخلفة على النوافذ تسكع فى سقوطها واحدة بعد أخرى ، أن سمعنا فجأةالسعال الذى يناطرنا حياتنا ، عرفناه لساعته من ترجيعه الطويل ومن حشرجته المتتالية

نظر إلى الدكتور توفيق فنظرت إليه .

– المعلم شعبان هنا فى منتصف الليل ؟ والدنيا تمطر ، ماذا يريد ؟

وأطل صديقى من النافذة فرأى المعلم شعبان يحاول فتح الدكان فانثنى وقد تملكته حيرة وقلق وتلفت يبحث عن دثاره :

– تعال ، تعال ، نشوف إيه ده كمان .

رأينا المعلم شعبان واقفا بالدكان وقد أدار ظهره للطريق والدخان يتصاعد من فتيلة مصباح من الصفيح موضوع فوق الرف

وقف الرجل يهز جلبابه ينفض المطر العالق به ، وكاد صديقى يدخل إليه لولا أننى منعته لأننى سمعت الرجل يحدث نفسه :

– معليهش يابنى ياعبده .. المطرة نزلت عليك وبللت هدومك والدنيا برد وتأخرت غصب عنى .

وقف الدكتور توفيق ورائى ، يجذب طرف ثوبى ويقول

- مغفل ، أنا قايل له أوع يطلع فى البرد ، شوف لابس جلابية شكلها إيه فى عز المطر ده ، معلوم ، خد بالك ، صدره بيـزيق إزاى ، وبص تلاقى نَفَسه مكروش ، عنده الآن احتقان شديد فى رئتيه .

وانحنى المعلم شعبان يبحث فى أرجاء الدكان حتى عاد ومعه دثار قديم لفّه على التمثال الخشبى ، الواقف بمدخل الدكان ، وقد تساقط عليه بعض قطرات المطر من شرّاعة الباب .

ومرت بنا نظرته ، تائهة لا ترانا .. وتملّك صديقى أذى مرة أخرى ، بالرغم منى :

- أنا مش قلت لك إذا ما كانش يبطل الأفيون سيصاب باختلاط فى ذهنه ، أهو أنت حظك كويس ، قدامك دلوقتى أحسن مثل له (ديليرم ترميمنس) من تسمم الأفيون . شوف . خذ بالك ، النِنى واسع إزاى ، والعين جاحظة ، لو قست حرارته دلوقتى يكن أربعين .

ومنعتنى بلاهة طارئة من أن أستمع لصديقى إذ كنت أسير كلام آخر :

- يابنى الشبوبية جنان فى جنان .. اللى فيك فيك ، كل ليلة تبات نايم فى الهوا ، مطر والا مش مطر ، مالكش أب يخاف عليك ؟ مالكش أم عاوزاك ؟ دايما دماغك ناشفة .

وأخذ المعلم شعبان يلف الدثار حول التمثال ، ثم وقف يحلق فيه برهة بعينين تتبادل عليهما نظرة حنان ، ونظرة حائرة تدل على شرود الذهن :

— رح تِفْضَل واقف كده ياعبده طول الليل ؟ يابنى أرقدلك شوية ، تعال ، أنا أنيمك ، تعال

وكان الدخان المتصاعد من المصباح ينعكس على وجه التمثال وتدور حلقاته حوله ، وتتلاعب ظلاله فوقه ، وكلما انعكست على وجهه ثم أظلم نطقت صورته بوضوح بمجهود قوى للإفضاء والبوح . . تبذله روح لا تجد فى الشفتين الخشبيتين إلا أشأم الأقفال ، وتحبس قوتها وتشلها أعضاء جامدة لا تختلج للعاطفة .

ومع ذلك كان حديث التمثال مفهوما ، فكلما انعقدت الظلال فوق جبينه رأينا الغضب يقطب أساريره ويحرق دمه فإذا انحدرت الظلال إلى ذقنه وزاد اسوداد حافة الشارب تقلصت الشفتان وشعرنا معها بالألم الدفين .

وكانت العينان تختفيان بين حين وآخر وراء سحابة رقيقة من الدخان ، فإذا سوادهما الكالح بالنهار يبدو حقيقة وإذا به إنطفاء الحزن والأسى .

واقترب المعلم شعبان من التمثال يريد أن يحتضنه ومال عليه ليزحزحه فدوى صرير رباطه وانصب فى أذنى كأنه صرخة استغاثة من روح إلى روح .

ودار حول التمثال وانحنى ليقوى على رفعه وأراد القيام فلمست يد التمثال كتفه وارتفعت معه وكان المعلم شعبان قد شعر بتبادل الحنان فزاد من انطوائه تحت ابط التمثال ودار بذراعيه حول وسطه ولبثنا برهة طويلة نرى ضمة حب قوى تجمع لحما وخشبا .

– آدى أول مرة تطاوعنى فيها . . ربنا يهديك يابنى كمان وكمان . .

وواجه التمثال ضوء المصباح وانقشعت الظلال من على وجهه فإذا جموده صبر وانصياع الطفل بين يدى أبيه .

ولما بدأت رأسه تميل كدت أسمع فى جو الدكان تنفس طفل ينام . .

ولكن صديقى توفيق لا يزال يهمس فى أذنى :

– علشان تعرف المجهود اللى هوا فيه شوف العرق اللى على جبته ، وأنا بارتعش من البرد .

– خلاص اصبر علىّ ، أنا أريحك ، شايف إيديك ماتخافش .

وانحنى المعلم شعبان يجمع قوته ، متمهلا فى حركته حتى لا يقع التمثال على الأرض ولكنه انفلت بثقله من بين ذراعيه واصطدم بالأرض فى صوت مكتوم كأنك ألقيت بقفة من العظام البالية .

ومالت رقبة التمثال نحو كتفه ، وتباعدت ذراعاه ، ورسم ظل الرأس على الأرض بحيرة من الدماء تتدفق من فمه .

* * *

وكنت وصديقى رؤوف قد جاوزنا عند هذا الحد من الحديث منزل العمدة ، وخرجنا من أنوار البلدة إلى طريق مظلم ، على يسارنا سور متهدم لمقبرة قديمة حواليها نخل كثير ، وفى الناحية الأخرى غيطان تتناثر فيها نيران خافتة كثيرة الدخان تحرسها كلاب بعويل طويل يردده زميل بعد زميل وإن تباعدت نيرانها . صرير الجنادب يؤكد هدوء الليل ووحشته ،

انقبض قلبى ، وزاد من انقباضه أننا دخلنا فى ريح حقل ذرة فهب علينا منه هواء ساخن مشبع برطوبة زهمة .

وكفّ صديقى رؤوف عن الكلام ، ووقفنا نتسمع حقل الذرة كأنه بحر خضم تتلاطم أمواجه ، يصلنا منه صريخ الهواء الذى غره منظره فلما دخله وجد نفسه كالفأر فى مصيدة لا يعرف خلاصا ، فهو مضطرب ، يضرب هذا العود حتى يرغم أنفه للأرض ، ويثب كالهرة فوق عود آخر فيهز شواشيه ، ويروغ تحت أقدام عود آخر . . ولكنه يجد نفسه يخرج من سجن إلى سجن ، وتضيق أنفاسه ويشتد اضطرابه ويعلو هياجة ووصلتنا صيحات هذا الهواء المحبوس مملوءة صفيرا هو كل ما بقى من أرواح تموت اختناقا فى سجنها المكشوف .

ولما أنار القمر هذا الحقل ، وبدت لنا حركة أعواده تركناها وكل منها يطعن الهواء بقرنيه ، ثم يثوب لنفسه يسترد قواه . .

وهب من رقاده الطويل قطار بضاعة فى المحطة البعيدة وطقطق عظامه فملأت صدمات الحديد المتوالية الجو رهبة ووحشة ، وسار القطار يتسكع على شريطه ، واختفى . إلى أين ؟

* * *

واستمر المعلم شعبان يبحث عن أغطيه أخرى يهيلها فوق التمثال ، ثم انحنى عليه ، وقارب ذراعيه إلى الجسد ، وعدل رقبته فانكشف وجهه للنور دون أركان خده ووضح جبينه فإذا بابتسامة خفيفة يسحبها الضوء

ويلقيها على وجه فتى متعب راقد فى فراشه ، يحلم حلما لذيذا بعد سفر شاق وغياب طويل .

وأخذ المعلم شعبان يلقى أثوابا أخرى على التمثال واحدا بعد آخر ، حتى أصبح قبرا عاليا .

جذبنى توفيق ، إذ كنت قد فقدت إرادة الحركة ـ ويداه تحميان صدره بطيّات ثوبه :

- سيبه . سيبه ، لو صحيناه دلوقتى حالته تسوء زيادة ، ولافيش فايدة خلاص . . أنا أحسن أوفر الحقن بكره لحالة تانية . .

قصة فى عرضحال

عثرت أخيراً على الشكوى التالية بين ملفات الحارس على أموال الأعداء المتخلفة عن الحرب العالمية الثانية ، وقد وقّع عليها الحارس بقوله : تحفظ لعدم الأهمية .

إلى حضرة جناب الحكومة المصرية السنية .

استرحام

سمعنا أنك قدمت للدول أو على وشك أن تقدمى أو سوف تقدمين ، والعلم عند الله وحده - كشفا تفصيليا بما أصاب مصر العزيزة من خسائر فى الأموال والأرواح بسبب الحرب وأنا واثق أن اسم صديقى العزيز الطيب القلب المسكين فهمى توكل سعفان غير وارد فى هذا الكشف لأن حياءه غلبه ففضل الصمت ولولا حبى له وعلمى بأنه مظلوم لما أزعجتك

بهذا الاسترحام التمس فيه منك أن تدرجى اسمه فى الكشف وتضعى تحت بند الأموال خسائره الآتية :

١٥٠ جنيها ورق بنكنوت .

٥٠ جنيها علبة سجائر من الذهب (ولم أحسب ثمن ما فيها من سجائر لاكى سترايك) .

٢٥ جنيها قداحة من صنف دانهيل .

٣٠٠ جنيه سيارة بالليلا ربع عمر – أما الكاوتشوك فلا يمكننى تقدير عمره لأنى لست خبيرا بالأنتيكة . .

وأرجو كذلك أن تضعى تحت بند الأرواح الضائعة اسم صديقى ، إنه حقا لا يزال حيا ، ولكنه يعيش بيننا كالميت فى يده بطاقة بصرف كفن شعبى واحد

الموضوع

كنت وفهمى توكل سعفان طالبين متجاورين فأصبحنا صديقين متلازمين ، ثم انفصلنا لأنه اضطر بعد الشهادة الإبتدائية إلى الانقطاع عن الدراسة لفقره وسافر لبلده ، ثم عاد وفتح دكانا صغيراً لمسح وتنظيف الأحذية على الطريقة الأمريكانية ، وفتح الله علىّ وحصلت على الكفاءة ووظفت ساعيا بمصلحة البريد فكانت مهنتى واضطرارى إلى مسح الحذاء كل يوم وترقيعه كل أسبوعين سببا فى إعادة الصلة ودوامها بيننا – فكنت أجده جالسا وراء مكتب صغير ، من خلفه راديو له ضجة وصفير ، وعن يمينه ماكينة خياطة يتخلل أغنيتها الجميلة – كضربات الطبلة – وقع

الشاكوش وهو يدق المسامير فى الكعوب والنعال (ولا أدرى أى الأنغام كانت أكثر إطراباً لصديقى) ثم أخذ يتاجر فى الجلود وحينئذ بدأت الحرب وتوالت عليه المكاسب ، وكان الترمومتر الذى أقيس به ارتفاع أرباحه هو السيجارة التى يصر على تقديمها إلى كل يوم . وكان فى مبدأ الأمر يدس يده فى جيبه ويصطاد لى منه سيجارة واحدة - فرطا - من ماركة لذيذ أو الفيل ، فأصبحت (معدن) أو (فلاج) ثم (ممتاز) أو (واسب) . ولما رأيته ذات يوم يقدِّم لى من علبته سيجارة شستر فيلد أدركت أنه أصبح من أثرياء الحرب .

فلم أدهش حين رأيته يشترى سيارة بالليلا ويسوقها بنفسه ، وقادته السيارة إلى الكابريه ، والكابريه إلى لواحظ الراقصة الساحرة فوقع فى دباديبها وتيَّمه غرامها وأهمل عمله وأخيراً دله ذكاؤه وفطنته أن أحسن حل يريحه من الانتقال كل يوم إلى الكابريه هو أن ينقل الكابريه ذاتها إلى غرفة نومه ، فيتزوج لواحظ ، وهى فتاة لها جسم - إذا غسلته - فتن العابد ووجه - إذا لم تغسله - آية فى الجمال ! فأنت ترى أن الحب ليس بالأعمى والأصم فحسب بل إنه أيضا مصاب بزكام حاد .

قال صديقى :

- وانقلب بيتى جحيما - فهى تظل طول نهارها فى قميص النوم ، حتى إذا حل المساء لبست ملابسها خرجنا أم لم نخرج ، فكنا نفطر طبيخا وأنا أتثاءب ، ونتغدى لبنا وشايا ، رأيت فى بيجاماتها جميع ألوان الطيف ، كل هذا ونجوم الظهر أيضا . .

ولم تكد تدخل دارى حتى هربت خادمى العجوز التى لازمتنى منذ



قدومى إلى القاهرة لتطبخ وتغسل لى ، وكلفتنى - أو أمرتنى - لواحظ أن أبحث لها عن غيرها ، فجئتها بخادمة لم تكد تراها حتى طردتها وقالت إنها أعلم الناس بسوء اخلاقها (وقد سمعت فيما بعد أنهما متخرجتان من دكان مخدم واحد) وجئت لها بغيرها وغيرها إلى أن دفعت فى معلوم المخدم فى أيام قلائل ما يزيد على أجر الخادم فى سنة كاملة ، وأخيرا هدانا البواب إلى نعيمة ، وهى فتاة منكسرة ، لها ضفيرتان طويلتان ، نظيفة كأنها خارجة من حمام ، مؤدبة كأنما نشأت فى بيت عز ، فرضيت بها لواحظ ولعلها اطمأنت حين رأت الضفيرتين وعلمت أن نعيمة ليست خادمة مودرن تتزين بالأبيض والأحمر . . ورضيت بنا نعيمة كما رضيت بفراشها فى البدروم . .

ولكن الرعب تملكنى حينما رأيت نعيمة تعطف علىّ ، فهى تعد لى ثيابى وتنظفها بلذة كبيرة ، وتقدم لى خير ما فى الطعام من لحم وفاكهة ، وكأن نظرتها تقول لى - إذا انفردت بى - (معلهش يازهر !) أدركت قرب وقوع الكارثة من جديد وشعرت أن زوجتى بدأت تنظر إلى نعيمة بتلك العين التى خلقها الله لكل امرأة ، آه ياصديقى ! إنك لا تعلم - كما أعلم أنا - كم من البيوت بدأ خرابها بهذا العطف الذى يتولد بين الزوج المضطهد والخادم الشفوق ، لم أفرح حين رأيت بذور الغيرة فى قلب لواحظ إذ يقال أن الغيرة دليل الحب ، وأنا لا أومن بهراء علماء النفس حين يتحدثون عن الغيرة ، فهى شىء والحب شىء آخر ، وغيرة المرأة فى نظرى أشبه شىء بتلك العواطف السامية التى تهز القطة جسداً أو شعراً ومخلباً وأنياباً حين تهم بأكل الفأر فتجد أمامها قطة أخرى . . خشيت أن تطرد نعيمة وتعود إلى الفوضى ، فبت ليلتى - أو بقية ليلتى - أفكر حتى اهتديت

إلى حيلة جهنمية من وحى الشيطان .

بكرت ومررت على جميع دكاكين المخدمين باحثا عن سائق سيارة فقد ادعيت لزوجتى أن عيونى متعبة وأعصابى منهكة وأخشى أن أقتل سائرا فى زحمة شارع فاروق . . عرض على سائق شيخ أمين متواضع فرفضته،وآخر لمحت فى عينيه الخوف والذلة والمسكنة فلم أقبله رغم تواضعه فى طلب الأجر ، ورفضت ثالثا إذ رأيت على جبهته زبيبة الصلاة ، رفضتهم جميعا ورفضت غيرهم إلى أن اهتديت إلى مطلبى فى أتم صورة تخيلتها ، شاب طويل عريض الكتفين،أسمر الجبهة - كما يقول عبد الوهاب . . بنطلونه رمادى وصديريته كناريا وربطة عنقه حمراء ، وشعره قد اندلق عليه حتى بريانتين بأكمله . . نظر إلى بعين بجحة ، وابتسم فبانت له أسنان كبيرة لامعة ! وزاد فرحى حين سألت عن اسمه فأجابنى (محسوبك أنور !) إذ وجدت لاسمه رنينا جميلا . .

فأخذته من فورى وسلمته سيارتى وأعددت له فراشا فى حجرة بالبدرم تجاور حجرة نعيمة ، ونمت تلك الليلة وأنا مطمئن بأننى نجوت من الكارثة وأن عواطف نعيمة ستنصرف عنى إلى رودلف فالنتينو . .

وبعد أيام قلائل عدت إلى دارى فلم أجد سى أنور ولا سيارتى . . لقد نجحت خطتى فى صميمها ولكنها لم تنجح فى تفصيلاتها . . حقا لقد وقع أنور فى غرام شديد دفعه إلى الهرب بعشيقته . . ولكن التى هربت معه لم تكن نعيمة ، بل كانت لواحظ زوجتى العزيزة وطارت منى نقودى وسيارتى،ولعل علبة السجائر ، والقداحة هى أول هدايا له . .

لهذه الأسباب

وبعد سماع قصة صديقى أرجو من جناب الحكومة المصرية السنية إجابة هذا الاسترحام والأمر لله من قبل ومن بعد .

عقرب أفندى

دخلت المدرسة تلك لأنها قريبة من دارنا ولأن أخى الأول والثانى والثالث مروا بها من قبلى ، لا أذكر أن أحدا طمأننى أو خوّفنى منها ، فما ينفعَ الحذر من القدر ، وقضت تقاليد الأسرة أن أرث عن أخى المنقول دفاتره وكتبه وهى خلاصة تركتين سابقتين ، ففرحت حين وجدت كراسة الإملاء عندهم جميعا من صورة واحدة ، تنطبق فيها الصفحة على الصفحة ، بل الكلمة على الكلمة ، ونلت - ما فى ذلك شك - (عشرة على عشرة) فى أول درس فلم أعدّها نوعا من الغش بل ميزة شرف سموت إليه عن جدارة دون بقية التلاميذ بفضل رسوخ الكعب وعراقة النسب . .

ولكن فرحتى لم تتم ، لقد قذف بى إلى عالم مجهول ، وقلبى يدق من رهبته ، وأنا أقول له أليس مما يدعو إلى اطمئنانك قدومك على صديق قديم لأسرتك ؟ إن معلم اللغة العربية بنحوها وصرفها سيلقاك ، ولا ريب بالترحيب .

قرأ الشيخ عبد الباسط اسمي على الكراسة ، ثم التفت إلى وقال بصوته المتهدج :

- أتكون من تلك السلالة عينها التي جاءنا منها فلان وفلان وفلان .

فأجبته وقلبي يهش له وأنا فخور :

- نعم أنا والله منهم .

فإذا به يقول لي على مسمع من الفصل كله : - ماأشبهكم بالأرانب في وفرة النسل ، لاتمر سنة إلا رأيت من ذريتكم وجها جديدا . . ألا تنتهي هذه الذرية ؟!

وأشد الألم أن تأتي الطعنة ممن يتوقع منه الجميل ، وزاد الخجل على الألم ، شعرت أن في كلامه تعريضا وقحا ، شعرت ولا أقول أدركت فأنا حينذاك صبي لاأعلم من أمور النسل إلا أنها أسرار عالم عجيب ، وأنها عيب فاضح ينبغي تنزيه اللسان عن ذكره ، ولكني نسيت كل هذا في فناء المدرسة ونحن نجري أو نكتظ كالفراريج المقرورة في جوانبه المشمسة ، وقد أقف أحيانا تحت الناقوس أحلم باليوم الذي يتاح لي فيه أن أدقه . .

ثم صحوت يوم قيل إن مدرس اللغة الأنجليزية قد نُقل وأن خلفه هو عقرب أفندي . هبط على الفصل كله وجوم ، وزاغت منه الأبصار فلم يمر علينا في المدرسة وقت طويل حتى عرفنا الأساتذة جميعا لابأسمائهم وحدها بل وبنصيبهم من تلك النعوت التي تجرى على ألسنة التلاميذ ولا يعلم أحد من اخترعها أول مرة ، فتبين أبلغ إبانة عن عادات المدرس أو عيوبه الجسمانية والأخلاقية ، وتلحق أربابها وتلتصق بهم ، وتكاد ترى بالعين ، كأنها الوشم لايفارق صاحبه مهما تقلبت عليه الأحوال والأيام ، وقد ينقل

المدرس من قنا لدمياط ويدخل الفصل وهو مطمئن فإذا بأذنه تلتقط همس التلاميذ بالنعت الذى ظن أنه دفنه بوادى الملوك .

كنا نعلم كل شيء عن عقرب أفندى - هو رجل قليل الكلام ، يدخل الفصل فيسير إلى منصته كأنه يجرى ، لايلتفت إلى التلاميذ وهم واقفون - كالأصنام - (يضربون) له السلام ويثبت نظرته على الفصل لحظة ، ينقر بإصبعه نقرة فيجلسون ، ثم نقرة أخرى فيفتحون الأدراج ، ثم نقرة أخرى فتقفل الأدراج ، وتوضع عليها الكتب ، ثم نقرة أخرى فتفتح الكتب على الصفحة المطلوبة ويبدأ الدرس . ولابد أن يجرى كل هذا بحركة واحدة منتظمة كخطو الجند والويل لمن يتخلف ، لمن يسقط من يده غطاء الدرج .

سمعنا وصدّقنا - والأمر لله - أنه يجبر تلاميذه على حفظ حروف الهجاء الإنجليزية طردا وعكسا ، وأنه يعاقب على أقل تلعثم بالضرب بحد المسطرة على ظهر الأصابع وهى مستندة على غطاء الدرج ، وفى عز الشتاء ، وازدهار القشف ، وأنه يلوى الآذان فيتلوى على صورتها وهيئتها الوجه والجسم معا . سمعنا أن الكسالى يجلسون (ديزا) على ركبهم طول الدرس وأن (المحصور) لايفوز وإن بكى بالخروج إلى المرحاض .

ودخل علينا عقرب أفندى لأول مرة فجمدت أعضاؤنا ، لم يقل لنا كلمة واحدة عما ينتظره منا ، ومع ذلك نقر نقرته فجلسنا ، ثم نقر ففتحنا الأدراج ، ثم نقر فأخرجنا الكتب ، لمعت عيناه بلذة الانتصار ورضى عنا . .

ولكن إلى حين . شط عقلى من الخوف فلم أستطع أن أحفظ دروسى

كما ينبغي ، فضربني بالمسطرة على أصابعي المورمة من البرد ، ولا ينفع في تسكين الألم إطالة النفخ أو دس اليد بين الفخذين ، جلست (الديسن) ساعات قمت بعدها أمشي مشية المصاب بالروماتيزم . مرت دروس كثيرة وأنا واقف ووجهي إلى الجدار بجانب السبورة أمام الفصل كله ، وكدت أبول في ثيابي مراراً .

كل هذه الآلام الجسمانية تزول بمر الزمن ، أما الرعب فما فارق قلبي ، ينام معي بالليل على وسادة واحدة . .

عقرب أفندي ! يرعبني وجهه فقلما جرؤت أن أثبت عليه نظري طويلا ، أرقبه من طرف عيني وأظافره منهمكة في نتف لحيته النابتة ، ينتش الشعرة فيميل فكه الأسفل تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار ، ويضغط بلسانه على خده فيتكور شدقه ، ويرعبني صوته النسائي . . ولكن الرعب كل الرعب تمثل لي في مشيته ، هو جسم بدين على ساقين قصيرتين ، تتذبذبان - في قيد خفي - بحركة متلاحقة سريعة ، كأنها دبيب بعض الحشرات ، أو كأنما هو شبح منفلت من حكايات الغول والعفاريت . .

وظل عقرب أفندي يسومنا العذاب يوما بعد يوم وسنة بعد سنة ، إذ كان ينتقل معنا كلما انتقلنا ، إلى أن تركت المدرسة تلك وفي صدري قلب شائخ وهو صبي .

ولعل عقرب أفندي هو وحده المسئول عن كراهيتي المتأصلة لنظام المدارس ، كسجن متحجر ، لايهمه الا حشو الدماغ بقشور لاتنفع وقد تضر . . درست ري الحياض وأنا لم أغادر القاهرة قط ، تلوت أسماء محاصيل لم ترها عيني ، أجبرت على أن أحفظ أن خشب التك هو من بعض

صادرات بعض البلاد الإفريقية وإلى الآن لاأعرف ما هو خشب التك هذا ، وعرقت طويلا - وما الفائدة ؟ - لأحسب زمن امتلاء حوض عليه حنفيتان وفيه بالوعتان - هل رأيت عمرك حوضا مثل هذا الحوض ؟ - حفظت كالببغاء إعراب (إذا) ولا أزال إلى الآن أردده ولا افهم منه شيئا . .

هذه مدرسة تميت كل موهبة ، وتقضى على كل شخصية ، ولعل أكبر إجرامها أنها تشل اليد أيضا ، فهى معطلة لاينتفع بها ، ولاعجب إذا كنت بسبب هذه الكراهية قد نسيت جميع مدرسى - ماعدا عقرب أفندى ! - كأن عينى لم ترهم قط ، كما نسيت جميع زملائى ، ونسيت أيضا كل ماتعلمته فى تلك المدرسة .

* * *

قضيت الحلقة الثالثة من عمرى وأنا غائب فى أوروبا ، ثم عدت ، فروى لى أخى أنه يعالج أسنانه عند طبيب يعرفنى ، ويسأل عنى ، ويقول إننا من أعز الأصدقاء ، إذ كنا متلازمين فى المدرسة تلك ، وجلسنا فى مقعد واحد فى سنة ثانية فصل ثالث وأنه لايزال يحتفظ بصورة سنة رابعة فصل أول وهو واضع فيها يده على كتفى ، سمعت اسم هذا الصديق العزيز فلم أجد له فى ذهنى أقل صدى ، وصفه لى أخى وصفا دقيقا فلم أتبينه وألح على أن أزوره معه لأنه مذ علم عودتى وهو يلحف فى السؤال عنى (ولعل أخى أراد من زيارتى له أن يكرمه بتخفيض الأجرة) وأنه يبدى التشوق لرؤيتى ، فرفضت . . ثم لا أدرى كيف انقدت لأخى ذات يوم (ولعله كان من أيام آخر الشهر !) فوجدت نفسى فى عيادة هذا الصديق العزيز ، وتصنعت أننى مشتاق إليه شوقه إلىَّ .

لم يكد يرانى حتى اندفع فى قهقهة طويلة عالية يهتز لها جسمه ، وتطلع إلىّ بعينين يكاد يقفـز منهما الفـرح وقال كـأنه يتم قصـة بدأهـا بالأمس فحسب :

– أتذكر عقرب أفندى ؟

– نعم أذكره .

– إذن فاعلم أننى كنت هنا ذات يوم فإذا بالباب يُفتح وإذا بعقرب أفندى بشخصه وبذاته يدخل علىّ . .

أصبح شيخا مهدما ، امتلأ وجهه بالأخاديد ، وشاب شعره هو فقير يتصنع الستر ، جائع يشيد بمزايا الصوم ، وفى يده خاتم لو باعه لأشبع بطنه زمنا طويلا . وقال بصوت مرتعش متقطع إنه مر مصادفة أمام الدار وقرأ اسمى فلم تطاوعه قدماه أن يمضى دون أن يصعد للسلام على تلميذه القديم ، ونظر إلى بعينين يكاد يترقرق ملؤهما من العطف والمودة والمحبة ، فلم يتحرك له قلبى ، وأدركت أن كرمه مقدمة وأن وراء الأكمّة مانلقاه دائما من الحرج فى طلب الأجر من الأقارب والأنساب والأصدقاء . . فلم يبق إلا أن يضاف عليهم ، والمدرسون . . أيضا . . توقعت أن ينهى هذه المقدمة بتذكيرى بالقول الكريم «عصا العلم من شجر الجنة» ولكنه لم يفعل . .

رحبت به وأكدت عرفانى لجميله ، وحفظى لذكرى أيامه الحلوة ، أومن أننى لولاه ما كنت شيئا ، ولم يخب ظنى وطفق يشتكى الزمان ويقول إنه تعب من أطباء الأسنان لجهلهم وجشعهم . قفز قلبى سرورا ، وقلت

قد وقع والله فى يدى وليس مجيئه لزيارة عابرة أو لتحية تلميذه القديم كما يقول .

كنت أستطيع أن أداوى لثته بالمس بالكهرباء ، ولكننى حين رأيته منصرعا بين يدى ، لاحول له ولاطول ، قد فتح فاه فانهدت قواه وامتنع عليه الكلام ، ولم يبق لـه إلا الصياح لم أتمالك نفسى من تـذكر أيامه السود ، وما قاسيته على يديه من الأهوال وتعذيبه لنا بلا ذنب جنيناه ، وقلت إن قدومه إلىّ برجليه لدليل على أن هذه الدنيا – مهما قيل فيها – لاتخلو أحيانا من العدالة ، وليصبر المتهم المظلوم فإن الزمن سيسير دورته ، فإذا به يحاكم من حكم عليه من قبل ، وحمدت الله إذ قُسمت لى مهنة طب الأسنان ، ولكننى ترددت قليلا ، أأنتقم أم أصفح ؟ وأخيرا قلت إن الصفح يتاح فى كل وقت أما الانتقام فلا يتاح إلا مرة . وهذه هى مرتك فلا تدعها تفلت من يديك

قلت له : لاينقذك إلا أن تخلع بقية أضراسك وإلا كان هلاكك بالبيوريا قريبا .

نظر إلى كالذئب العجوز قد سقط جريحا فى الشرك ، ربَّت على كتفه وأكدت له أنه لن يشعر بالألم ، وأننى ساعفى مدرسى العزيز من الأجر كله .

أسلم نفسه إلىّ ، وأردت أن أجعل انتقامى كاملا ، فلم أكثر من المخدر ، وتعمدت أن أقلقل أضراسه وأحركها داخل اللحم الحى قبل أن ان أقتلعها ، وكلما شدت يدى على الكلابة وأوجعته وأنا أخلع أضراسه تردد فى أعماق روحى صوت يقول :

- خذها من يدى جزاء مالقيناه على يديك !

سال الدم من فمه كالصنبور ، وتأوه ، واصفر وجهه وأنا واقف فوق رأسه أشعر براحة وسعادة عظيمة . .

* * *

أسرعت بالانصراف ، كأننى هارب ، وصديقى العزيز متشبث بى يقول :

- أنا فى خدمتك إذا احتجت لعلاج أسنانك فى مصر . .

ياله مأفون أحمق ! أيحسبنى أسلم له نفسى وأنا ضعيف الذاكرة لاأدرى لعلى أساته أنا أيضا فى يوم من الأيام .

(جريدة «أخبار اليوم» ، العدد ٣٧ ، ١٩٤٥/٧/٢١ ، ص ٦)

فى السينما

قاربت الأربعين وأنا متمتع فى روما بأيام حلوة فى كنف صديق نبيل زكى النفس طاهرها ، لقيت فى داره وعلى مائدته ، وفى رفقة أهله ومعارفه ، جوا من الطيبة والكرم ، تنتعش له النفس ويهدأ الخاطر ، تعيش فى ظله خادمة إيطالية بدينة اسمها «استير» هى التى تفتح الباب وترد على التليفون .

رأيتها لطول ترددى على الدار تتودد إلىّ ، وتسألنى عن صحتى وأخبارى قبل أن تنادى سيدها إلى التليفون ، وتلقانى على الباب بابتسامة حلوة ، وإن أنا انقطعت أفهمتنى أنها لاحظت غيابى ، لم تستطع أن تنطق باسمى إلا بلهجة أعجمية قد تضحك وان دلت عيناها على أن قلبها لا يتعثر كلساتها ، وأكبر الظن أنها حسبت أن بى شيئا من شرود الذهن أو نوعا من التلعثم . .

فما من مرة لقيتها إلا حاولت جهدى أن أحييها باسمها ، فلا أفلح ،

جاهدت كثيرا فلم أوفق ، أذكره أحيانا وأظل أكرره لنفسى وأدقه بمسامير من العزم والارادة فى ذهنى ، وقد ينطق به لسانى وأنا فى المصعد ، فإذا فتحت الباب طار من عقلى كأنه لم يمر به قط من قبل . وقد تشاء بعض الألفاظ الا أن تتأبى على اللسان ، ونحن نحس على رغم هربها أنها كامنة فى أذهاننا ، مختبئة أو تائهة ، أما اسمها فكان إذا طار ترك فى ذاكرتى فراغا كأنه ضرس مخلوع .

والغريب أنى كنت أخطىء أحيانا كثيرة فأناديها باسم آخر ، وقد لاحظت فى شىء من الدهشة أنى إذا أخطأت لا أقع إلا على اسم واحد لا يتغير ، فأقول لها (كيف حالك ياسارة) ! . ولم أجد لهذا التلازم تعليلا إلا تشابه الاسمين .

وأرقت ذات ليلة وعادت إلى ذاكرتى أيام طفولتى وصباى فى جو من الغيم تزحف كسفة برفق عن يمين وعن شمال ، وأخذ ذهنى يقلّب لى ما فيه من أحداث وقبور .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى دار صديقى وفتحت لى الباب فإذا بى أقول لها «كيف حالك يا استير ؟» ومنذ ذلك اليوم واسمها لا يغيب عن لسانى .

نشأت فى أسرة تتعشّق السينما ، رجالا وصبيانا ، لا يخرج حديث مائدة العشاء عن ذكر الأفلام القديمة والحديثة والقادمة،وعن ترديد أسماء الممثلين فى إيطاليا وألمانيا وأمريكا ، والمقارنة بينهم . لا أشترك فى الحديث - لصغر سنى - بل تلتقط أذناى بنهم كل كلمة تقال ، وأعتنق آراءهم ، وأضحك لضحكهم ، وقد أروى بعض ما سمعت إلى زملائى فى المدرسة كأنه مما رأته عيناى .

وانتبهت فإذا بى أنتظر يوم الخميس بفارغ الصبر ، فهو اليوم الوحيد الذى يسمح لى فيه بالذهاب إلى السينما ، أترقبه منذ صباح الجمعة ، وأعد الأيام والساعات ، أريد أن ينفد العمر فيها كغمض العين .

فإذا جاء الخميس - مرحباً بغرة الأيام - تناولت غدائى مسرعاً ، وأنا قلق متلهف ، وأخذت ألح على أخى الأكبر لنخرج ولما تدق الساعة الرابعة ، وأسير بجانبه وأنا ألهث ، أى ساحر سحرى ؟ ليست هى دار السينما وحدها ، ولا الرواية ، ولا الممثل ، بل جو خليط من هذا وذاك ، واجهة الدار بإعلاناتها وصورها الضخمة تكاد تنطق ، وأنوارها المتحركة ، والتزاحم على بابها ، وتلك الضجة العظيمة التى أسمعها ولما ندخل . «تقدم . تقدم» أقولها لأخى وأدفعه دفعا إلى شباك التذاكر ، يمنعنى الزحام وقصر قامتى أن أتبين من يكون فيه ، ولكنى أعلم أنه وحده القادر على إدخالى .

هذا وجهى يحتك بثياب الحارس الواقف على الباب ، وتسمع أذناى بلذة طاغية صوت تمزيق التذكرة إلى نصفين ، لقد زالت العوائق كلها والحمد لله ، ندخل إلى الصالة فإذا بها سوق قائم ، أصوات متعالية ، وهتاف ، وصفير ، ونداءات باعة اللب والفول والكازوزة ، والكراسى من حديد لها مقاعد خشبية متحركة تنطوى بقوة إذا قام الجالس عليها فهى لا تنفك تقعقع كصوت المراسة تسير على الحصى والحجارة ، ثم تقف الصالة كلها وتلتفت هائجة إلى الوراء نحو الألواج لأن رجلا دخلها ومعه امرأة . . لا بأس . . ها نحن فى أول مقعد نلقاه ، وقد لا يرضينى فأنتقل الى غيره ، وأقيس مكانى من الشاشة وأحسب حساب من سيجلس

امامى ، وأدعو الله أن لا يكون رجلا عملاقاً طويل القفا ، ولقد شاهدت افلاما كثيرة وأنا واقف على قدمى .

ويمر وقت يضيق به صدرى . وأنا أتلفت إلى النوافذ أترقب أقل حركة تدل على أن إغلاقها قد اقترب ، واسأل أخى «ألم يحن الوقت بعد ؟ .» وأنصت بأذن مرهفة إلى غرفة العرض فقد أضحت عليمه بتلك الأصوات المينة التى تنبعث منها فتدل على أن العامل قد (شرْف) وأنه اخذ فى تركيب الفيلم . ثم أصمت يائسا متهما أذنى و(ترسو) يضج ويدق الأرض بأرجل تسحق قشر اللب والفول السودانى ، فأعجب بهم وأقول سراً (ياهم من أبطال ، لا يهمهم شىء !) ثم ينتقل التصفيق ودق الأرض - بالعدوى - إلى (سكوندو) و (بريمو) فترتفع فى نظرى قيمة جيرانى . آه ! هذا النور سخيف ، ثقيل الدم ، وأنا أريد الظلام ، ظلام يبدو جماله إذا شقه عمود من الضوء كأنه الروح فى الجسد . اه يا فرحتى ! هذه هى النوافذ بدأت تتحرك ، وهذا هو الجمهور كالبحر الهائج إذا خفت الريح قليلا ، وهذا هو الجرس يرن رنته المحبوبة ، أطبق الظلام وضاعت منى الصالة والعالم كله ولم يبق فىَّ إلا عينان مسمرتان على الشاشة .

أحب أفلام الشجاعة والفروسية والمبارزة بالسيوف وركوب الخيل تسابق القطار ، وقفز البطل من هذا الى ذاك ، وأحب كذلك الأفلام البوليسية ، وكلها دهاء ومكر ونصب فخاخ ! (وقلبى يشارك اللص ويستخف بالشرطى) وجوه تملأ الشاشة وهى تضحك وتبكى وأين نرى وجوهنا وعواطفنا بالميكروسكوب إلا فى صالة السينما . ثم تظهر كلمات على الشاشة العربية فتقرأها الصالة كلها بصوت عال كأنه هدير الأمواج ، وبذلك ينتقل المعنى إلى ذهنى عنيفا متضخما . امتزجت حياتنا بالرواية

فكأننا نعيش مع أبطالها . فها نحن نصرخ للص أن يتنبه للشرطى يدب وراءه ، ويغيظنا منه أنه لا يسمع تحذيرنا .

ما هذا ؟ هل انتهى كل شىء ؟ كيف مرت الساعتان ؟ إن قلبى لم يشبع . أحقا نقوم ؟ أضاع كل أمل فى أن أرى أصحاب السينما يرق قلبهم كرما فيضيفون على البرنامج فصلا مضحكا ؟ الجمهور متشبث بالمقاعد يهتف «لسه فصل ، لسه فصل» أسبوع بعد أسبوع وهم لا ينالون وطرهم ، ومع ذلك فلم يخب رجائى فى يوم من الأيام لأن أرى المعجزة تتحقق

أَشُدُّ يد أخى والأمل كله يتجسم فى تلك الشَدّة ، فأجده يشدنى ، وأفهم أن اليأس حتم لا مفر منه ، أراضى نفسى وأقول لها : أمامك الأسبوع القادم ، ثم نخرج ونسير تحت بواكى شارع محمد على مصعِّدين إلى الحلمية .

أسمع صوت (الماشات) فى القهاوى البلدية و(وش) موقد كواء الطرابيش ونشيش الشواء على عربات اليد فى باب الخلق ، وتصل إلى أنفى رائحة دكان بائع الفسيخ - وهى مقفلة - وأنا كالمنوم ، كالحالم ، تبحث عيناى وأذناى عن شىء يأسرهما فلا تجد .

***

مرضت زمنا ، وخلت أن الحياة قد انقطعت عنى لانقطاعى عن السينما ، ثم قيل لى قد دخلت دور النقاهة ، فقمت لساعتى ، عاصيا أبوىَّ ، مقسماً لهما أننى شفيت . . لم أجهل كم خميسا مر على ، أعدها

واحدا واحدا ، وأتحرق على الأجزاء التى فاتتنى من (السلسلة) مع أنى انتزعتها منظراً منظراً وحادثة حادثة أكثر من مرة من فم أخى الأكبر ولكن أين السمع من المشاهدة ؟ إن قلبى غير راض ولا مطمئن .

خرجت وحدى ، وكان العمر قد تقدم بى ، وفى جيبى ثمن التذكرة، ونصف قرش لشراء اللب والفول ، ومشيت أكاد أجرى ، وبلغت السينما ، ورفعت عينى إلى اللوحة فُضقت وجمد الدم فى عروقى وركبتنى برودة الموت ! يا للخيبة ! ما هذا الحظ السىء ؟ أبعد الصيام الطويل أفطر على بصلة ، كنت أصبحت خبيراً بالسينما ، أكاد أميِّز الأفلام جيدها ورديئها - فى مذهبى - من رؤية الصور المعلقة فى مدخل الدار . وقد تنحصر نزهتى بعض أيام الجمع فى المرور على جميع دور السينما واستعراض صورها والظفر بما استطعت من براجها المطبوعة فإذا لم يتيسر لى دخولها فلا أقل من أن ألم بها ، وأطوف حولها ، وأتحسس أنباءها وأحلم بأسرارها .

ووقعت مرة فى مأزق (قُرصت) منه . دخلت السينما عجلا فى يوم وأنا لا أعلم أنه يوم عيد عند المسيحيين أو اليهود - لا أدرى - على أية حال هو عندهم عيد حزين ، فإذا بالفيلم قصة دينية مستقاة من التوراة كلها لت وعجن ، وحركات ثقيلة ، وسحن حزينة ، ورعاة بيِّنة سماجتهم ، طويلة عصيهم وقفاطينهم ولحاهم ، وأغنام ونعاج ، وامرأة عجوز تتطلع إلى السماء طويلا ، وشيخ يبارك قوما قد جلسوا القرفصاء . . ليس فيها لص واحد ، ولا مبارز ، ولا مطاردة ، ولا قطار ، ولا جياد ، فشربتها وخرجت ساخطا يا لله ! لماذا نسوا ما شيست وشارلى شابلن ؟ إن هذا عذر لا مسوِّغ له ، وظلم وقلة ذوق وسماجة . . وكان اسم الفيلم (سارة)

تذكرت سارة وأنا واقف أتذوق مرارة الغم ، اذ رأيت السينما تعلن أنها لمناسبة عيد الفصح قد قررت وقف السلسلة لتعرض بدلها في تلك الليلة وحدها الرواية الدينية الكبرى (أستير) .

لست أنا الذى أُلدغ من جحر مرتين . لا لحصافتى ، بل لخفة جيبى . . أستير ! ما أسمج هذا الاسم وما أبرده ! فليقل الفيلم إنها تدخل الجنة أما أنا فأراها جديرة بالجحيم . . .

وانصرفت يائساً غاضباً وأنا أجر رجلى جراً ، كنت وحدى ولا أجرؤ على دخول دار غير تلك التى اعتدت أن أدخلها الا إذا كان أخى معى . . وأخذت أعود القهقرى فى شارع محمد على تحت البواكى . لا أسمع (الماشات) بل أستير ! أعوذ بالله ! ولا (وش) موقد كواء الطرابيش . بل أستير ! من أين طلعت لى هذه المرأة ؟ ولا نشيش الشواء ، بل أستير ! تباً لها وسُحقا . دكان بائع الفسيخ مفتوح ومع ذلك لا أشم رائحته . . ونفذ المقت إلى قلبى قطرة قطرة حتى ملأه ، كرهت أستير واسمها كرهاً شديداً ، ونمت وقلبى يلوك هذا الكره .

(مجلة «الثقافة» ، ٣٣٤ ، ١٩٤٥/٥/٢٢ ، ص ص ٢٠ - ٢٢)

الدرس الأول

لدسونس – القرية الصغيرة – محطة صغيرة تنام بعيدا عن البلدة وسط الغيطان ، جوها هادىء وديع معطر بأريج النبات ، وأرصفتها قصيرة غير مُسوَّرة ، تلاحقها عيدان الذرة ، تسير بجانبها قطعان الجاموس والبقر ، وجرسها الذى يدقه الناظر كلما أذن القطار بالقيام متواضع الصوت خافت الرنين ، كصوت صغار الديكة .

تمر بها قطارات فخمة فتهزأ بها ولا تقف ، تهز الأرض وتملأ الجو صفيرا يتمثل فيه الفلاح هيبة الحكومة ، وتتريث عندها فى فترات بعيدة قطارات قذرة قد ينزل منها راكب ، وقد يحل غيره محله ، ويعاود القطار سيره تاركا وراءه سحابه من دخانه .

ولكن لا هذا ولا ذاك يحرم محطة دسونس من هدوئها . فمن تأسره الغيطان الشاسعة لا تقدر على استخلاصه منها قوة أخرى . لذلك فإن لمحطة دسونس عقلية القروى ، هى ساذجة لا تألف ولا تفهم سر هذه

القضبان السود اللامعة التى تخترقها من بحرى إلى قبلى ، لا يعرف لها مبدأ ولا نهاية ، طريق سحرى يؤدى إلى كل وطن ، ولا يضل فيه مسافر ، يخيل إليك أن أكشاكها الخشبية وأرصفتها القصيرة تحدِّق بخوف فى هذه القضبان وتتضاءل أمامها كالقطة التى أشلها ثعبان .

إذا قرب ميعاد قطار ، استفاقت المحطة من نومها شيئاً فشيئاً ، تستيقظ على رنين جرس ضئيل يدق مرتين فى البلوك ، فيقوم أبو داود إلى التليفون ويجيب أن الطريق خال ثم يعمد إلى مفاتيح (السمافور) ويجذبها إلى صدره واحدا بعد واحد ، فإذا وصل إلى (سمافور المسافة) أخرج من جيبه منديلا محلاويا كبيرا ، وانحنى ، ثم ثبّت قدمه فى الأرض وجذبه جذبة قوية تبعث الدم إلى وجهه وتحرك فى عرق منه مرضا خفيا . . وإن رأيت ذراع السمافور - على بعد كيلو متر من المحطة - ينثنى ، فاعلم أن أبا داود قد نجح ، وأن قواه قد خانته ، وأنه مرتم على مقعده يمسح عرقه . .

وإذا نزل السمافور فعندئذ - لا قبل ولا بعد - يتحرك العم خليل من كشكه ويمد سلسلة المزلقان ويشير إلى جمهور الفلاحين أن ينتظروا مرور القطار . أما المترجلون منهم فينحنون ويمرون تحت السلسة و(يزوغون) منه ، ويستمر الراكبون فوق دوابهم ويعلو تذمرهم :

- يا عم خليل لسه بدرى على القطر !

وجرت العادة أن العم خليل لا يتنازل ويجاوبهم ، فإن زادوا فى إلحاحهم نشر أمامهم علما أحمر ووقف لا يتحرك ، ولكنه لا يلبث أن يسمع مرة أخرى من نواح متعددة :

- يا عم خليل خلينا نفوت النوبة دى .

وعندئذ يجيل نظره ويختار شخصاً يكون قد حضر لساعته لم يسمع هذه المحاورة ، ويقترب منه ، دون أن يلتفت إلى بقية الواقفين ويقول له وهو غير مبال بما يدور على وجه المستمع له من دهشة يخالطها الطاعة :

- أنا موظف حكومة أفهم الأصول ، أنت مش فاكر الحمار اللى داسه الوابور وجه فيه جزا عشرة أيام للخفير اللى قبلى ؟ أنا مسئول ، وانتم مالكم ؟ تفوتوا وخلاص والحكاية تفضل فى رقبتى .

وإذا أوشك القطار أن يظهر أقبل ناظر المحطة حلمى أفندى يهرول على الرصيف وقد تدلى كرشه من جاكتته ذات الأكمام المقصبة ووضع قلماً رصاصاً على أذنه .

وبعد أن يمر القطار تعود محطة دسونس مرة أخرى لنومها العميق ، نعم خليل يستوى على مقعد واطىء فى كشكه يقرأ "دلائل الخيرات"، وأبو داود يميل إلى النافذة وتأخذه سِنَة من النوم حتى يوقظه جرس آخر ، وأما الناظر فقد يقصد منزله القريب ويختفى به ، إلا إذا ناداه التلغراف بضرباته القوية المتكررة الملحة التى تأسر سمعك أردت أم لم ترد .

***

أنت تعرف هذه المبانى التى تقيمها مصلحة السكك الحديدية لموظفيها بالمحطات الصغيرة ، طابق واحد من الطوب دون طلاء فى شكل مستطيل ، ضيق العرض ، حجره متشابهة صغيرة .

فى مثل هذا البناء ولد يوسف حلمى وألف وهو فى المهد رجة الأرض

وصفير القاطرة واصطدام الحديد ، وحينما استطاع الوقوف على قدميه كانت أمه تأخذه إلى ناقلة خلفية وتمسكه من طرف جلبابه ، فإذا انتفع بحريته الضئيلة وأطل وجد تحته قطار البضاعة يروح ويجيء بمناورة ، وراء المنزل ، واستنشق دخان القاطرة دون أن يرهبه منظرها ، وخيل إليه أنها مخلوق عجيب ، كبير الجسم ، أسود اللون ، ينقاد لسبب ما لرجل معفر الثياب متسخ الوجه واليدين .

وحينما اشتدت ساقاه وخرج أمام الباب كانت أمه تسلمه إلى أبيه ليتبختر معه - هذا بجسمه الضخم وذا بجسمه الضئيل - على الرصيف ، ولكن الزمن أخذ يفصل أيديهما المتشابكة ، واستقل الصغير بحركاته ، وجاوز الرصيف إلى كشك العم خليل حيث وجد جوا وديعا ومحبة لم يجدها من أبيه .

كان حلمى أفندى ناظر المحطة شغوفاً بترتيب منزله والاعتناء بداره ، له موهبة خفية تجعله مربياً ناجحاً للحمام والأوز والدجاج ، إذا دخلت داره وجدت وراء الباب أقفاصا معلقة يحييك منها حمام أليف بهديله المحبوب ، من يمنى وهزاز ، وترى أوز حلمى أفندى نظيفا سمينا يسير الهوينى إلى مصرف قريب ، يستحم ويعود ، وإذا أخذ دجاجة فى يده لم ترهبه ، ولا ينزلها إلى الأرض إلا إذا جاءها - ولا تدرى من أين ، بقطعة خبز يفتتها لها أو حفنة من الشعير ينثرها أمامها .. إذا استفاق مبكرا خرج إلى مثوى الحمام والأوز والدجاج يفرّق عليها الطعام بقدر معلوم ويرى نتاجها الجديد ، ويغير ماءها ، وينظف مسكنها ، لعلك تعذره بعد ذلك إذا أهمل تربية ابنه ، لا يذكر يوسف حلمى أنه آنس من أبيه جلسة دامت

أكثر من دقيقتين أو قبلة تعقبها أختها ، بل لا يلبث أن ينزله إلى الأرض ويربّت على ظهره ويتركه كأنه يقول :

- أنت وشأنك فى هذه الحياة .

وكان الصبى يلوذ بأمه وحنانها ولكن أمه بمزاجها الأنثوى لم تكن تشفى غليل الرجولة التى بدأت تطالبه حقها منذ أن استطاع الاستقلال بحركته ، وهى فوق ذلك حبيسة دارها.ووراءه وعلى بعد خطوة واحدة وهى عتبة الباب حرية الرصيف الطويل الذى يتبختر فيه جيئة وذهابا . . أليس هذا هو اليتم بعينه ؟ . . .

***

العم خليل سودانى ، أمه مصرية ، تتجلى فيه عادات أهل السودان وتشبثهم بقوميتهم كأنها دين لا يقبل المناقشة ، فهو نظيف فى ملبسه ، متأنق فى مأكله ، فى أخلاقه حدة ، يحتقر الفلاحين ، ويقرأ «دلائل الخيرات» ، بصوت مرتفع حنون ، ثم لا تنس هذا العطر الغريب الذى يستقبلك إذا اقتربت من سودانى ولذلك إذا أقبلت على كشكه استروحت منه النظافة والطيب ، وأدركت أنه يلوذ به فرارا من مخالطة الناس . وقليل منهم من يدرك المأساة التى قاساها العم خليل ، فقد تزوج فى صباه من فتاة من أسرة عربية تحب الخيل ، زواجا كامل الطقوس ، فوجدها زوجا عفوفا تحصن عفافها وشرفه ، ثم ولدت له ابنه الوحيد وماتت فى حمى النفاس ، ولما بلغ ابنه السادسة لحق بأمه وتركه يبكى مرارة الوحدة .

وذات يوم مال يوسف حلمى إلى المغامرة وجاوز الرصيف فكانت مغامرة سعيدة إذ أنها قادته إلى اكتشاف كشك العم خليل ، ولما وقف أمامه نظر إليه السودانى برهة ثم أخذه من يده وأجلسه بجانبه على مقعده الواطىء ، فتنفس يوسف من طيبه ، وشعر بيد حنون فوق كتفه ، ورفع بصره إلى وجه مملوء بالغضون وعينين وديعتين ، وعمامة بيضاء نظيفة ، وضحك الصبى وبدت نواجذه فلم تلبث الغضون أن انبسطت ، وابتسم الرجل وقام الصبى واعتلى الرصيف وعاد جريا إلى منزله .

كان الصبى فى ذلك الوقت فى سن السابعة والرجل فى الحلقة السادسة وكان الصبى قد بدأت أسنانه الأصلية تثبت فى فكيه واحدة بعد أخرى وكان الرجل قد بدأت أسنانه تسقط واحدة بعد واحدة ، وكان الصبى لا يفهم من الحياة سوى رصيف المحطة وكان الرجل قد عرف حلوها ومرّها. ومع ذلك ففى هذه الفترة الضئيلة التى مكثاها معا بالكشك اتصل قلباهما واستحكمت بينهما عرى عاطفة قوية ، لم تكن من جانب الرجل عاطفة أبوة ، ولم تكن من جانب الصبى عاطفة بنوة ، لأن تعطش الصبى للحنان الذى حرم منه وتقرح قلب الرجل لفقدانه متعة حياته أوقفهما موقفا متكافئا ، كل منهما يأخذ ويعطى ، كل منهما ضحية قدر قاس ، ولذلك نشأت بينهما ثقة ومصلحة متبادلة وعرف قلباهما معنى الصداقة الحلوة . . هذا - للأسف - فى وقت متأخر ، وذاك ، للأسف أيضا ، فى وقت مبكر .

وظل يوسف بعد ذلك يعتقد أن الدنيا تنتهى بكشك العم خليل متمثلة فيه السعادة والود ، حتى وصل إلى سن الثامنة وحينئذ طالب عريف

الكتاب فى البلدة بهذا الجندى الجديد ، فعرف أن للدنيا نهاية أخرى يتمثل فيها العذاب .

ولكن غيبته بالنهار ساعدت على نمو الصداقة بينه وبين العم خليل ، الذى يهمه قبل كل شىء أن يكون فى عمله خالى البال لا يشغله أحد ، وكان إذا عاد يوسف من الكُتّاب يدخل منزله ويضع لوحه ودفاتره ويأخذ لقمته محناة بالجبن ، ثم يخرج يقضم منها جيئة وذهابا على الرصيف ، ثم يهبط إلى كشك العم خليل ويتعب سمعه بتلاوة ما حفظه ، فيغنى له بنغمة هادئة ، ثم ترتفع :

والـديـن لا تـلـعـب بـه لعب الصـوالـج بـالأكـر
حـافـظ عـلـيـه فـإنـه نعم المـربى فى الـصـغـر

ثم بنغمة تبدأ مرتفعة وتنتهى خافتة :

نظّف حجرة النوم ، لا تأكل الفاكهة غير ناضجة .

ثم بنغمة متزنة متكررة سريعة :

الرأس ، الجمجمة ، الوجه ، الشعر .

وقد تختلط هذه النغمات «بدلائل الخيرات» وقد تمر بُعض القطارات فيهلل لها يوسف ويرتمى فى أحضان العم خليل .

ومرت سنتان استظهر فيها يوسف جزء عم وشيئا من جزء تبارك ، ووصل فى الحساب إلى القسمة البسيطة وفى القراءة إلى نهاية كتاب التهجى

والمطالعة وكان وصل فى تقدمه إلى أول صف وأصبحت الدروس تكرارا لا جديد فيه . إذن ثم ماذا ؟

أما أبوه فلم يفكر فى الأمر لأنه منشغل بتربية الأوز والدجاج والحمام ولولا أمل الأم أن ترى ابنها ينافس ابن سلفتها فيكون تلميذا له بذلة وطربوش ، ولولا العم خليل تأخذه الحدة لإهمال صديقه ويكرر على سمع الناظر حديثا يحفظه ويقدسه (اطلب العلم ولو فى الصين) لما أصبح يوسف حلمى يكتب الآن تحت اسمه (معاون إدارة) .

وحمله أبوه مضطرا إلى دمنهور حيث قيد اسمه بمدرستها الإبتدائية بعد نجاحه فى الامتحان ، إذا حدثك محدث عن حياة الدراسة ما ألذها وفترة الصبا ما أحلاها فإن يوسف حلمى لا يحدثك عنها إلا حديثا كله ألم .

ها هو صبى صغير ، فى بنطلونه الذى يكشف ركبتيه ، وجوربه الممزق ، وجاكتته التى تبرز مرفقيه من أكمامها المثقوبة ، وطربوشه حائل اللون ، قصير الزر يتأبط من ناحية كتبه ، ويعلق فى يده الأخرى منديلا فيه رغيف ، يقف مستعدا على الرصيف منذ الساعة السادسة صباحا فى انتظار القطار رقم ٤ ليحمله إلى مدرسته بدمنهور .

إنه للآن يذكر هذا الرقم ويتشاءم منه ويمقته ، وفى الشتاء تستقبله السماء بأمطارها فيلف طربوشه بمنديله ويصل لمدرسته والوحل لركبتيه ولا يعود لمنزله إلا بعد العشاء ، لذلك كان يوسف حلمى ينتظر يوم الجمعة بشغف شديد لأنه اليوم الذى ينفرد فيه بالعم خليل فى كشكه ، ويجلس بجانبه ويحس بالدفء والحنان فى جواره .

***

فى يوم من أيام شهر فبراير القارس البرد كان إصلاح الشريط قد اقترب من محطة دسونس فازدحمت بعمال الدريسة ، ينامون تحت ألواح الخشب القديم الذى يخرجونه من تحت الشريط ويكومونه عششا صغيرة ، يأكلون جميعا من زكيبة واحدة فيها بتاو . وإذا ذرّ قرن الشمس هبوا من نومهم واحتل كل منهم مكانه ، عارى الجسد ، فى سروال أبيض متسخ ، رباطه يتدلى إلى الأرض ، كلهم سمر الوجوه ، تقاطيعهم صافية وأيديهم خشنة ولكن أذرعتهم قوية وظهورهم كالمطاط لا يؤذيها الانحناء المستمر ، وإذا بدأ العمل وانهالوا على الشريط بضرب متقطع ، ثم لا ينتظمون إلا إذا غنى لهم أحدهم من وسط الصفوف :

على حسب وداد قلبى يابوى
على حسب وداد قلبى يا بوى
وأنا كل ما أجول الزين سلامات

فتردد الصفوف فى صوت عال مرتفع (يا بوى) وتزداد ضربتهم قوة ، ويسرهم انتظامهم معا بالضرب فى وقت واحد فينسون العمل الشاق حتى إذا جلسوا فى فترات الراحة خمدت قواهم واستراحوا على المواويل التى يغنيها أحدهم عن البلينا ومزاتة وناعسة وبنات عبد الله فيحن كل منهم إلى وطنه . . يشربون الشاى عكرا كالحبر ، وجوههم كالحجر الصلد ، أذرعتهم من حديد ، ظهورهم تحمل الأثقال لا تتوجع . وإذا أتى المساء التفوا حول نار ومالوا بوجوههم عليها وقد يمد أحدهم ساقه فوق اللهيب كأنه يقدمها شواء وماذا تفعل النار فى طبقات (القشف) المتراكمة فوقها وبعد أن تتطاير منها ذرات ملتهبة يبدلها بساقه الأخرى

وإذا مر قطار فخم خفف من سرعته وسار الهوينى فيقف ركابه وراء النوافذ ينظرون السبب وعندئذ يتبادلون هم والعمال نظرات استعراضية سريعة الغناء .

هؤلاء رجال جالسون على الأرض ، يسطع لهب النار على وجوههم فتبدو فى لون أحمر ، وتختفى فى الظلام بقية أجسامهم،ضجيجهم مرتفع ونظراتهم جائعة ، يحدقون فى الركاب كأنهم يرون أمامهم مخلوقات غريبة ، وقد يخيل إليهم والركاب يمرون أمامهم كل منهم وراء نافذة ، صامت لا يتكلم ، أنهم يرون أشباحا ليست من هذه الدنيا .

وهؤلاء الركاب يلقون عليهم نظرة سريعة عابرة ، وقد ينسى أحدهم ، وهو مأخوذ بأريج المزارع ونقيق الضفادع ونسيم الليل ، أن يلتفت إلى هذه المخلوقات التى تدور بوجوهها معه تصطاد نظرته ، وكثيراً ما يحدث أن يضحك أحد الركاب لسبب من الأسباب فتقع ضحكته موقعا عجيبا فى سمع العمال ، فينطلقون هم كذلك فى ضحك سريعة عدواه . . ويعاود القطار سيره . .

كم تأفف العم خليل من رائحة الحلبة والبصل والعرق يتصاعد منهم كأنها بخار أتون ، وغلبه الوهم بأن أسرابا من القمل قد اقتحمت كوخه واحتلته فأخرج مقعده الخشبى إلى الشمس وغسل الكوخ بالبترول وأطلق فيه البخور السودانى وظلت رائحته تملأ خياشيم صديقه الصغير أياما طويلة .

وجاء العمال بلافتة حمراء وضعوها فى المكان الذى يبدأ عنده إصلاح الشريط ليهدّىء القطار عندها سيره ، ووصلت إلى الناظر إشارة تليفونية

بالتنبيه على العم خليل أن يلازم هذه اللافتة ويركب كل قطار يمر حتى يرشد السائق إلى إنتهاء الخلل فى الشريط . . هذه هى التعليمات التى ينبغى للموظف أن يطيعها وإن لم يجد لها ما يبررها .

***

مازال يوسف حلمى يذكر إلى اليوم هذا الصباح البارد المحتجبة سماؤه وراء سحب كثيفة ، جو أشهب اللون يخيل إليك أنه منقبض حزين دامع العين . . وقف يوسف - كعادته - فى مكان من الرصيف ينتظر قطاره ، ولكنه رأى سمافور طريق الإسكندرية ينثنى ، ورأى العم خليل يخرج من كشكه ويمر عليه ويقول له وهو سائر «لف ودانك بمنديلك من البرد»

وبعد قليل وصل العم خليل إلى اللافتة الحمراء ثم ظهرت على بعد ، عند تلاشى القضبان ، نقطة سوداء أخذت تتضح وتتضخم شيئاً فشيئاً فإذا هى قطار ، رأى يوسف ذراعه وهو يهبط إلى الأرض ويرتفع ، ثم رأى العم خليل ، حين وصل القطار إلى اللافتة ، يقفز إلى سلم القاطرة وبيده علم أحمر ، ويعاود القطار سيره ببطء تنبعث منه سحابة أثر سحابة من الدخان وكان قطار بضاعة لا يقف على محطة دسونس . .

واقترب القطار ، لما بلغ مكان يوسف ، قفز العم خليل يريد النزول ، ولكن تبا وسُحقا للقدر ! هل يعرف الإنسان نصيبه ومكتوبه ؟ قفز العم خليل وانزلقت رجله وهوت بين الرصيف والقاطرة ، فسقط ، وامتدت يده إلى الرصيف تريد أن تعتمد ولو على موت آخر . . ولكن قوة أعظم جرتها إلى الأرض ، فسقطت متشنجة الحركة ، بارزة العروق ،

وخلال لحظة طائرة رأى يوسف وجه صاحبه يتوسد الأرض فاغراً فاه يكاد يسف التراب من شدة الألم ، جاحظة عيناه كأنها رأت الجحيم الذى كانت تخشاه طول حياتها .

أين وجه العم خليل الطيب وعيناه الوديعتان وعمامته النظيفة من هذا الوجه الأغبر المتشنج من شدة الألم وعمامته التى مزقها القطار وأحالها أشلاء متناثرة .

واستمر القطار يجر الجثة معه ، حتى خرج بها من الرصيف وقذفها فإذا هى تسقط متباعدة الذراعين أمام الكشك المعطر بالبخور السوداى ، وظلت الجثة خرساء لا تجيب نداء المأوى الذى يحن إلى صاحبه .

ولما جاء قطار يوسف دفعه أبوه إليه دفعا غير رفيق ، لأنه كان يود أن لا يذهب للمدرسة فى ذلك اليوم .

***

وفى الدرس الأول دخل المعلم الفصل وكتب بأعلى السبورة بالخط الثلث :

إنشاء عربى . .

ثم كتب تحته بخط رقعة .

فوائد السكك الحديدية .

وبدأ يشرح للطلبة فوائد السكك الحديدية ، ثم أمر الفصل بالإبتداء فى الكتابة فامتدت أربعون يدا صغيرة بالأقلام إلى الدفاتر وابتدأ أربعون

ذهنا ناشئا فى التنقيب ، وكتب أحدهم (عن فوائد السكك الحديدية ، وما أدراك ما السكك الحديدية) وكتب ثان (خلق الله الإنســان . .) وكتب ثالث (يجرى القطار بقوة البخار فيقوم من بلد إلى بلد دون أن يتعب فى ذلك أحد) .

وتحركت الأيدى وسمع للأقلام صرير إلا يد واحـدة يمضى الوقت وهى مستقرة فوق دفتر صغير ، لا تتحرك ، وكان صاحبها شاحب اللون زائغ البصر يتجه بوجهه كله إلى معلمه أينما سار بين الصفوف كأنه يريد أن يستفسره أمرا أو يفضى إليه بخبر ولكن خيل إليه أن أستاذه ورفقاءه قد نسوه فجأة ، فهم لاهون عنه ، لا يشعرون بوجوده بينهم وأنه غـريب عنهم .

ومضت الحصة ولم يستطع أحـد أن يسجل مـا يعتلج فى قلب هذا الصبى إلا دفتره الأبيض .

صـحوة !!

الخمر وحدها هى التى تجمعنى وهذه الحلقة من تابعيها المريدين لايزيدون عن أربعة أو خمسة ، من مهن متباينة وأعمار متفاوتة ، وجيوب عامرة وأخرى غير عامرة . قد لاتتقاطع فى الحياة مسالكنا ، وقد لاتتشابه فى بقية الليل والنهار طبائعنا ، ولكن إذا حان الغروب والتففنا حول الكؤوس ، زالت من بيننا الفروق وتوحدت الأمزجة وربطتنا صداقة قائمة ما قامت الزجاجة ، وتلك - لو علمت وكنت قنوعاً - نعمة كبرى

كلنا نتشابه فى الفرار من الحانات وضجيجها وفى التأفف من عربدة السكارى والعياذ بالله ، ولهذا فنحن لا نجتمع إلا فى دار من تقع عليه النوبة من أفراد الحلقة . وبقدر ما تكون خلوتنا نائية عن الأنظار ، فى مأمن من الدخلاء والغرباء - وإن كانوا أعز الأصدقاء خارج الحلقة - يكون مزاجنا فى عز سلطانه ، «وكيفنا» على أتمه .

لاأريد أن أتمادى فى وصف اجتماعاتنا حتى لايزل لسانى فيشبهها



بحياة الحيوان الذى يعيش تحت الأرض ينبش عن الديدان ، قد يكون لحم الديدان أطيب اللحوم ، ولكن أية لذة فى طعام يؤكل خفية فى الظلام ونور العين فداؤه ؟ فهل الذى يجمعنا فى الخلوة ويضم شتاتنا حول الزجاجة ، وهل الذى يفر بنا من الخلق ، كل هذه مظاهر لداء واحد : هو إخفاق كل منا فى حياته ، فهو يستعين بالخمر ليستسيغ مرارته على مهل ، ويلجأ للوحدة ليخفى عن الناس خجله .

إذا توافى الخلان وملئت الكأس الأولى ثم الثانية وانحدرتا لاتذوق لهما الحلوق طعما ولا يعتدل بهما مزاج ، أخذ الحديث ينسلت شيئاً من تكلفه وتفككه إلى انطلاقه وحريته ، وهو عروج أرواح مغلولة ، لا تلبث أن تفارق الأرض وتحوّم فى أجواء صافية نائية . وإذ ذاك يقع كل منا عند صاحبه على ناحية من خلقه لم يكن يعهدها فيه من قبل ، فليس شىء كالخمر يفض أقفال الشفاه ويبين عن خفايا السرائر .

هذه الأفكار لاتزال تدور فى رأسى اليوم بعد هذا الاعتراف العجيب الذى سمعته بالأمس من رؤوف . وهو رجل أنوف . لايفارقه الوقار والرزانة . هو ساقينا ومحدثنا وأكثرنا إخلاصاً للكأس . مائدة الخمر فى غيابه أكل وشرب ، وفى حضوره طقوس ومراسم وعبادة ، كأنما لبنت الكَرْم معبد هو كاهنه ونحن نأتم به ونصلى .

لا أدرى ما الذى جر الحديث بالأمس إلى الموازنة بين أخطار الخمر والميسر والمرأة . وهى حلقات فى سلسلة واحدة . زجرنا الخمر قليلاً ، ثم برّأناها سريعاً . وهاجم أحدنا - وهو أفقرنا - الميسر ، ونسب إليه وحده خراب البيوت وسقوط الزوجات ، وانقطع الحديث برهة ، فإذا برؤوف يقول فى صوت أجش حزين :

– بل المرأة . .

كنا قل أن نتحدث عن النساء ، وإذا ذكرناهن فبالسوء وبالإنتقاص والذم . ولكن لهجة رؤوف كانت تنطق عن قلب موله معذب .

– إذا أقبل الرجل على المرأة بعد نهار متعب بمشاغله ودسائسه فمدّت إليه يدها أو هيأت له شفتيها أو أذاقته من أفانين ما تعلم أو تجهل من دل النساء ، هدّت إرادته فإذا هو فى يدها خرقة متخاذلة تحركه كيف تشاء ، ولو قالت له اسرق لسرق ، أو اكفر لكفر . والضعف بين يدى المرأة هادم للرجل هدمة لا قيام له بعدها . فهو أسيرها بالليل والنهار ، فى حضورها وفى غيبتها ، وفى وفائها وفى غدرها . وكم من سر دفين باح به الأمين عليه فى ساعة نشوة بين ذراعى امرأة .

وصمت رؤوف وأخذ يحدق فينا بنظرة اختلطت فيها المرارة بالضحك ، والكبرياء بالتسليم ، وقال :

– هل تصدق أننى «سرقت» يوما ما ، لاحبا فى المرأة ، بل انتقاما من المرأة ؟

– لما أردت السفر إلى فرنسا لإتمام دراستى اشترط على أهلى أن لا أقيم فى باريس . . مدينة اللهو والفجور . .

هكذا كانت عقلية آبائنا . . كأنما اللهو والفجور لا يحلان على الانسان حيثما حل . ذهبت إلى ليون ومكثت بها ثلاث سنوات ، منصرفاً عن الدراسة . مقبلا على اشباع جوعى القديم للمرأة ، ولشد ما دهشت حينما رأيتنى أصاب بالتخمة سريعاً . . وبدأت أتذوق نبيذ بوردو . . ولما

قرب ميعاد عودتى إلى الوطن بدأت أعد الهدايا لأفراد أسرتى ، ولى أخت عزيزة علىّ ، فاصطفيت لها ساعة يد مرصعة بالماس ، ودفعت فيها مبلغاً طائلا ، لا أذكره الآن وإن كنت لأ أزال أحس لذعتـه ، وقلت فى نفسى . . كيف تغادر فرنسا ولا تودع باريس ؟

نزلت فى (بنسيون) فى إحدى ضواحيها ، بعيداً عن حى الطلبة ، لم تكن حجرتى أنيقة ولا الطعام شهيا . ولكنى بقيت فيها لأننى لا أحب التغيير والتبديل ، ولأن مدموازيل بلانش ابنة صاحبة البنسيون سحرتنى سحرا شديداً . . أعاد إلى تلهفى القديم على المرأة . . وظمئى الشديد إلى الحب . إذا تكلمت ضحكت نظرتها ، وأطبقت جفنيها وفتحتهما فى حركة سريعة ، كنت أشعر بانتفاضة أهدابها كأن طائرا مضطربا ينفض جناحيه فى قلبى . . دعوتها أول ما دعوتها إلى الأوبرا فى المقاعد الأمامية . .

وأغلب الظن أن هذه الفتاة الفقيرة ذُهلت من البذخ الذى اندفعت فيه ، فلازمتنى ملازمة كنت أحسبها لوجه الله ، أو صادرة عن عاطفة صادقة . . اشتريت لها ثوبا للسهرة وأخذتها إلى أكبر مطاعم باريس وفنادقها . . وأشرفت نقودى على النفاد ، فأبرقت إلى أهلى بأننى اضطررت إلى السفر إلى باريس لاستشارة أخصائى كبير وطلبت منهم أن يسعفونى بمبلغ كبير لئلا ينتقل السل إلى الدرجة الثانية أو الثالثة . . كل هذا والفتاة تتمنع علىّ وأنا سعيد بتمنعها ، وقد حسبت أننى وقعت على فتاة شريفة ليست كسائر من عرفتهن . . ودخلت حجرتى يوماً تحمل إلى طعام أفطارى وقالت :

– يامسيو غزوف . ألا تعلم أن اليوم عيد ميلادى . . لم أتركها تغادر

الحجرة حتى قمت من فورى وفتحت حقيبتى وأخرجت الساعة العزيزة التى كنت أخبؤها لأختى المحبوبة ، وقدمتها إليها وقلت :

- عسى أن تعجبك هذه الساعة فإننى اشتريتها من أجلك . ما من رجل يقدم هدية لامرأة إلا وقف بين يديها كالتلميذ بين يدى أستاذه ينتظر بعض عبارات الثناء . عانقتنى ، وأهدت إلىّ شفتى قبلة بين الطويلة والقصيرة ، ثم همت بالخروج فاستوقفتها وقلت لها :

- لايزال لى عندك رجاء صغير .

- ما هو ؟

- نتعشى الليلة فى مطعم . .

ارتبكت قليلا ، إذ كان هذا المطعم لا يقصده إلا العاشقون وأدركت أنها فهمت غرضى ، وفرحت عندما رأيتها تجيب :

- لك علىّ ذلك يامسيو غزوف .

آه لو كنتم تدركون كيف تكون الراء غينا حلوة جميلة من فم هذه الفتاة . وهذا الإبدال البسيط كيف يذيب القلب ويلهب الدم ويأسر الروح . .

لاتزال بلانش أمامى تحدق فى الساعة وتتأملها وهى فى معصمها وتقول :

- ولكنها لا تليق إلا مع ثوب السهرة وسأحتفظ بها فى خزانتى . .

ثم وضعت يدها على الباب تهم بالخروج فإذا هى تتريث قليلا وتلتفت إلىّ وتقول :

– سأؤخر ميعاد لقائنا قليلا لأن أمي سترسلني لزيارة خالتي هذا المساء . . فليكن لقاؤنا إذاً أمام المسلة في ميدان الكونكورد الساعة الثامنة مساء . .

قبل الموعد بنصف ساعة كنت أمام المسلة وفي قلبي غُصّة من آثار مصر المسروقة ، وحل الموعد فلم تأت ومضت نصف ساعة ، ثم ساعة ، وأنا واقف أغلي على نارين : الغيظ والخجل . ما آلمني الانتظار بقدر ما آلمني أن وقوفي واضطرابي وقطعي دائرة المسلة ذهابا وإيابا ينبيء عن شاب غر ساذج ضحكت عليه فتاة بموعد مكذوب ، أهم بالانصراف فلا تطاوعني قدماي ، وأجرها فترسخان في الأرض ، ونزل المطر رذاذا فاحتملته ، وقرصني البرد فصبرت له . وأخيرا يئست ، فإذا هذا الشاب الصحيح المعافى البشوش الضحوك يرتد عن المسلة شيخا متهدما يائسا ، قد كره الناس وسئم الحياة . هرعت إلى حي بيجال – حيث اللهو والمجون – وأنا أنوي أن أسكر سكرة ساقطة وأعربد عربدة صاخبة ، فلا يقوى على طرد هذا القبح من نفسي إلا قبح أشد منه مرارة وعنفاً . . شربت كثيراً ، وكان شرابي من أردأ الخمر . ودعوت إلى مائدتي امرأة عجوزا دردبيسا . ولا أدري إلى اليوم كيف احتملت قبلات فمها الأهتم . ثم توهجت بي الحمى وأخذ القلق والضيق يطبقان على أنفاسي ، فقمت أبحث عن الهواء والسماء . . وأخذت أسير على مهل ، فإذا حانة صغيرة خيل إلى أن وراء نافذتها شبحا أعرفه ، وقفت أحدق إليه فإذا هي والله المدموازيل بلانش بعينها بين ذراعي خالتها . وخالتها شاب من البحارة قد استسلمت لضمه وأمالت رأسها على كتفه .

وقفت ذاهلا زمنا لا أدري أطويل هو أم قصير ، وبدت لي سذاجتي

عارية وحماقتى سافرة ، وساورتنى رغبة شديدة فى الانتقام لكرامتى . ولكن ماذا أفعل ؟ وفجأة وخزتنى ذكرى الساعة الجميلة التى كنت اصطفيتها لأختى العزيزة المحبوبة ، وقلت حرام أن تكون لمثل هذه المخادعة الخائنة .

أسرعت إلى سيارة وأمرت سائقها أن يطير بى إلى البيت وصعدت السلم جريا ، وفتحت الباب وتسللت بحذر إلى مخدعها وأنا أعلم أن أمها العجوز فى حجرتها تغط فى سباتها . هذه هى الخزانة . . فتحتها وأخرجت ما بها من الثياب وبعثرت زجاجات العطر ويدى ترتعش ونفسى مضطرب حتى عثرت على ساعتى المنشودة ، فوضعتها فى جيبى ، وأصلحت حال الخزانة ، ودلفت إلى حجرتى على أطراف أصابعى . وما كدت ألقى بنفسى على الفراش حتى غمرنى نوم عميق . فقد شعرت أن جبال هملايا كانت جاثمة على صدرى فانزاحت عنه ، وأنى صرعت فى ميدان القتال ألد أعدائى . فهبطت على السكينة وغمرنى الاطمئنان واندملت جروحى . . .

وانطلقت من رؤوف ضحكة عميقة مكتومة زلزل لها صدره كأن صخور جبال الهملايا كانت لاتزال تتساقط عنه .

— وفى الصباح المبكر قبل أن تستيقظ المدموازيل بلانش كنت قد أعددت حقائبى ودفعت حسابى وانطلقت من الدار إلى المحطة إلى مصر لم أتخلف لحظة واحدة فى مكان ما .

وإلى اليوم لا أدرى هل فهمت أختى العزيزة تلك الابتسامة المجرمة التى طفت على شفتىّ وأنا أناولها الساعة وأقول :

— عسى أن تعجبك هذه الساعة ، فقد اشتريتها من أجلك !

حصير الجامع

وجدت العمدة أمام داره فى جمع من الناس فأسرع وتنازل لى عن دكته ، ولكنه لم يتركنى أجلس حتى عاد أحد الخفراء ومعه بساط فرشه لى العمدة بيديه وهو يقول :

- شرفت بلدنا ياحضرة المفتش . .

لاحظت أننى قطعت حديثا يتفكهون به ، بدليل الابتسامة المنتشرة على وجوههم ، ورأيتهم يتوجهون ببصرهم إلى الصراف وهو جالس على الأرض بجانبه خرجه ودفاتره ، وفى يده ورقة طويلة عريضة يطبقها .

وكان أول من أعاد الحديث رجل عجوز يلبس زعبوطا يكشف عن صدره :

- وبعدين يامقدس خليل . . كمل لنا قرايتك . . قول . .

فصرخ فيه العمدة :

- فضنا . . إحنا دلوقتى فى إيه ولا إيه . . خلى فى عينك نظر . .

سألت الصراف :

- إيه الحكاية ؟

فناولنى الصراف الورقة ، نشرتها فوجدتها إعلانا كبيرا من وزارة الزراعة عن أوصاف طاعون الدجاج ، والاحتياطات التى يجب أن تتخذ لمقاومته (حصر الدجاجة المريضة ، ورش الأرض بالجير ، واستدعاء الطبيب البيطرى فى الحال ، وأنها مستعدة بلا مقابل لتشريح جثة أية دجاجة ترسل إليها ، وأن فى مخازنها حقنة ضد هذا الطاعون ثمنها عشرون مليماً . .)

التفت إلىّ العجوز ذاته :

- ياحضرة البيه . . عشنا وشفنا الفروج ينضرب له إبرة . .

ضحك الجميع بسرور ، وفهمت من تطلعهم إليه واستقرار الأنظار على وجهه ، ومن استعدادهم للضحك لأقل ملاحظاته ، أنه فى الغالب عجوز القرية المعروف بدعابته ، تلك الشخصية التى نلقاها فى معظم أنحاء الريف . .

وعاد للكلام :

- هى الفروج بنى آدم ؟ السنة اللى فاتت شكونى إبرة قعدت فيها عيان جمعه ، اشحال الفروج يابوى !

تطوع الصراف للدفاع عن وزارة الزراعة ، فهو الموظف الوحيد بينهم ، صحيح أن العمدة موظف مثله ولكن لاتنس أنه بدون ماهية !

ونظر إليّ – وعيناه تطوقني بالجميل – يفهمني أن دفاعه يشملني أيضاً ، فهو – مع بقية الجمع – (لأنه في الظاهر موظف ، وفي الصميم فلاح) لاينسى ، أو إن شئت لايغتفر لي شرف الانتساب للحكومة ، أنا «ولدها» فلم لا أكون مسئولا عن كل تصرفاتها ؟ . .

أوسعت نظرته مابيني وبين الجمع من قطع شعرت به واضحا منذ أن بدأ هذا الحديث . . هم أهل البلد ، أدرى بأمورهم ، وأنا الموظف ، لايهمه – مادام بعيداً – أي خبط يتحكم به فيهم . . ولما تكلم الصراف رأيته يعدل عن الدفاع إلى ماهو أسهل وأشهى لديه ، إلى التهجم على الشيخ الثرثار :

– بس لو كان عندك كتكوت واحد ، بلاش نقول فرخة ، كان يبقى لك حق تتكلم . .

لم يجبه العجوز واستمر يقول :

– يعني الفرخة خفت والا ماخفتش ، مش ح تاكل ح تاكل ؟ توماتميل رقبتها الواحد يدبحها ويخلص . .

– والله لو كانت في إيدك عمرها ما تهون عليك . . تبقى نفسك فيها ، ومش هاين عليك تدبحها ، مستخسرها في نفسك . وفي الآخر تاكلها فطيس . .

– يلا فلحسة فارغة . . أنا في الحكومة اللي مستنية لما الناس تبعت لها رمم فراخ معفنة . . على إيه الخوتة والتعب ، تيجي بلدنا وأنا أسلمها ولا ميت فرخة ملقحة في السكك . .

ولعل العمدة خشى أن يطول لسان العجوز ويزيد ، فصرخ فيه ليريق سلطته ومقدار ذكائه فى فهم الحكومة وروح أوامرها :

- ياشيخ درويش ! ماتفهم ! . . عقلك طخين ليه ؟ . . ماانتش عارف شغل الحكومة ؟

على أننى كنت طول الوقت مزجع الرأس ، لا أدرى أمن تعب المشوار أم من ضربة الشمس ، أصابنى غثيان ، وبدأت أعرق ، فى الجو نتانة غريبة ، طول حياتى لم أعهد رائحة خبيثة كالتى كانت تملأ خياشيمى وأنا جالس لا أستقر على الدكة ، قمت بتشريح جثث منبعجة ، وفتشت على اصطبلات عديدة ، ولكن كل هذا هين بجانب العفونة التى كادت تزهق روحى . . زاد تململى ، وأخرجت منديلى ووضعته على أنفى فما أفاد . . تلفت الى جلسائى فما وجدت واحدا منهم يشاركنى الشكوى . . كلهم فى هدوء . . يكلم أحدهم الآخر كأن الدنيا بخير .

لم أتمالك نفسى وسألت العمدة :

- ياعمدة ! . . أنا شامم ريحة مش كويسة . .

- لا مش حاجة ... أعمل ايه ؟ والجامع بحرى البيت . .

وأشارت يده بحركة سريعة أرتنى على بعد من المنزل وفى نهاية ساحة متسعة أمامه جامعا صغيرا له مئذنة بيضاء قصيرة . .

- لكن مش كويس كده . .
- فى ايه ؟
- مش دا جامع ؟ دا اسمه بيت الله . .

- بس ولا مؤاخذة الواحد ساعات يستقربه .

وشعر العمدة أنه تورط ، فعاد يبرىء نفسه ويرمى التهمة على غيرة :

- الواحد لما يصلّى فيه يبقى معذور . . ساعات الواحد قبل الصلا يحب يفك عن نفسه علشان ما ينقضش الوضوء قوام ويصلى به فرض كمان . . ولكن تقول إيه فى الفلاحين . . الكيمان كثيرة حوالين البلد ، ما يحلالهومش إلا الجامع . . يدخلوا فيه علشان كده وبس . . تحوش فى مين ؟ زى البهايم . . الله يخيبهم . .

- يعنى ما فيش حد بيصلى فيه ؟

- لا فيه . . الإسلام بخير . . بس الجمعة والعيد أكثر من بقية الأيام . .

لم أقم حتى نُفّذت تعليمات المركز وعُلّق إعلان طاعون الدجاج على باب غرفة التليفون لمن يستطيع فى البلد الأمى أن يقرأ ، وإن قرأ أن يفهم أوامر وزارة الزراعة . .

وكان من حسن حظى أن بنى رزيق على حافة الجبل ، ولذلك اخترت مكانا بعيدا عن المساكن ونصبت فيه خيمتى وباقى الخيام ، وفى الصباح بدأ المستشفى رقم تسعة المتنقل للأنكلستوما عمله . .

وكان أكبر سعادتى أن موقع المستشفى بحرى الجامع !

***

مكثت فى بنى رزيق ما يقرب من ثلاثة شهور وأنا كل يوم أرى العمدة وشلته ، لم أتمالك نفسى أن أراقبه عن قرب ، وألاحظ كل حركاته

وأقـواله ، فهـو وحـده الـذى استلفت دونهم نـظرى . . فـالشيخ درويش - العجوز الثرثار - كان كثيرًا ما يضحكنى ويسلينى بسخطه على الزمن الحاضـر وبعضاتـه فى الناس ، ولكنـه يزول عن ذهنى بمجـرد أن يسلّم ، وشيخ البلد رجل ساذج ، يخيل الى كلما رأيته أنه قائم من النوم ، قلما يجلس على الدكة دون أن يسند رأسه على إحدى يديه ، ويثنى ركبته ويضع عصاه بين رجليه . . إذا لم تعجبه كلمة«طزقع» بلسانه على سقف حلقه وعدل رأسه على يده الأخرى ، له فى بعض الأحيان حدة فجائيـة تجعله يتلعثم ويكرر الكلمة الواحدة مرات عديدة ، ثم يبرد ويضحـك ضحكة تنتهى بسعال .

أما العمدة - فعلى العكس منهم جميعا - رجل «غويط» يوحى منظره بـأنه كثير الاحتراس ، يجتهد أن لاتنم حـركـاتـه وأقـوالـه عن نيـاتـه وأغـراضه . . النـاس عنده رجـل ضعيف يبحث عن إحدى الـوسائـل لاستغلاله ، أو قوى يعمل جهده على تحاشى أذاه ، بشرط أن لايفهم هذا أنه فريسة ، أو ذاك أنه استغفل . . ولكن طمعه هو الذى يكشفه دائما . . بل لعل السبب أيضا هو خوفه وجبنه . تجده يبدأ الكلام ثم يصمت قليلا ليرى أين وقع غرضه ، فى هذا الوقت وحده تفوته الثقة فى نفسه وتبدو الحيرة فى عينيه ، فإن نجح اطمأن ، واستفاض فى القول والحركة ، وإن صُدم طوى شراعه الى أن تطيب الريح . .

كان يزورنى فى المستشفى ويسألنى هل يلزمنى شىء ؟ هل يستطيع أن يقدم لى خدمة ما ، هل أنا واجد من يغسل لى ملابسى أو يطبخ لى ؟ ثم قبل أن يقوم يوصى على بائع لبن - لأنه لايغش - أو على أحد المرضى لأنه من أقربائه .

لم أكتشف سره الا بعد أن تركت البلد ، فقد علمت حينئذ أنه كان يكذب عليّ ، وليس بين الذين أوصى عليهم أحد من أقربائه وإنما هم بعض الفلاحين المترددين على المركز فى ذهنهم فكرة الوساطة لايتنازلون عنها ، فاستغلهم العمدة لقاء أجر معلوم . . ومن يدرى ؟ ربما أفهمهم أنه يشاركنى فيه . .

على أن أخلاقه لم تتبين لى الا بعد أن أثيرت مسألة حصير الجامع ، أخذنى مرة لصلاة الجمعة فى الجامع إياه . . فليس فى البلد غيره . . لما دخلته وجدته بتساقط الطلاء تتدلى من جدرانه العناكب ، على كل من جانبى المنبر علم أخضر سواده مطأطىء رأسه للفقر والمسكنة . . القذارة بادية والهواء مكتوم ، والحصير عيدان متفرقة تبدو منها الأرض مغبرة ، عليها تراب هش متماسك تكوّره الرطوبة . . وعندما ركعت وقعت عينى لصق بقة كبيرة بدت لى متضخمة الحجم ، وأظنهابقة أخرى ، إن لم تكن قملة أو برغوثا ، هى التى قرصتنى فى رجلى .

واختمرت عند ذلك فى رأسى فكرة كنت من قلة التجربة أننى نفذتها . . فقد علمت أن هذا الجامع لا يتبع وزارة الأوقاف ، وأن العمدة – وهو أغنى أهل البلد - يتولى الصرف عليه . . فيعطى الإمام مرتبه : أردبين أذرة فى الموسم وجنيه واحد ، لأن الإمام بدوره يستأجر أرضا ويتكسب منه ، ثم يقبض يده ولا (يبن) بمليم واحد . .

قلت للعمدة ونحن خارجون :

– أنا لو كنت منك وأحب اكسب ثواب صحيح كنت كسحت المرحاض واشتريت للجامع حصير جديد . . ليه ماتعملهاش ؟ إنت قدها وقدود .

لم أزد على ذلك شيئا . . على أن هذه الجملة كبرت فيما بعد ولبست ثوبا من التقريع والتهكم على أهل البلد كله ، فلم تمض ليلة حتى دعانى العمدة الى داره - لأننى ما «عتبت» منزله ، وكل جلساتنا على الدكك أمام الباب . . فوجدت جمعا كبيرا ، على وجوههم الكثير من الجد والاهتمام . . كان الوقت وقت عطش القطن ، فلم يجد العمدة صعوبة فى جمعهم . . لم أكد أجلس حتى تكلم :

- حضرة المفتش دلوقتى له فضل كبير علينا . . وكلمته ما تنزلش الأرض . بيقول إنه عيب عليكم تخلوا الجامع بالشكل ده . . مايصحش منكم أبدا . . ما فيش فى قلوبكم إسلام ؟ ما كانش عشمه فيكم كده . .

وهكذا وهكذا والجميع ينظرون إلىّ جامدى الوجوه ، ليس فى نظرتهم - وأقول الحق - غضب أو تململ . . ظللت برهة أظن أن سبب طاعتهم أن ملاحظاتى فى محلها ، جمعتهم ، لأنها - فأنا غريب عنهم - لاتثير ذكرى ثأر أو حقد دفين .

أما هذا التقريع فكم مرة سمعوا ما هو أقذع منه فتركوه يدخل أذنهم اليمين ليخرج من أذنهم اليسار ولا يعكر مزاجهم ، ولكن شيئا خفيا جعلنى أذكر فجأة إعلان وزارة الزراعة ، فوضح لى فى اللحظة ذاتها معنى كان مبهما يتردد فى ذهنى ولا أتبينه . . وانتبهت الى أن شعور الجمع وهو حوالى هو بعينه ما كان يجول فى نفوسهم عندما قرىء عليهم الإعلان . . هناك ضحكوا لفكرة حقن الدجاجة ، وهنا صمتوا لأن للجامع حرمة . . وما عدا ذلك فالأساس واحد : خليط من الريبة والاستخفاف وشىء من الرضا المغتصب وطاعة كلها تمثيل كاذب . .

هذا الشعور هو قوام مجاوبتهم لكل تدخل فى أمورهم . من يقدر سوء حظهم لأن كل المحاولات تأتى من أجنبى عنهم - حكومة أو موظفاً - لا يفهمهم ، يعيش فى واد وهم فى واد . . إن لم يكن غرضه ملء جيوبه ، اقتصر فى تدخله على التافه الغث السخيف ، وترك ما هو لديهم قرين الحياة ومستلزماتها . . مرة عن جثث الدجاج ، ومرة إحصاء الناس فردا فرداً ، ومرة إحصاء الزرع شجرة شجرة وعوداً عوداً . . يحقنهم سنة وجاموسهم سنة . وفوق ذلك استدعاءات ومشاوير وأوراق ومحاضر لا تقدم ولا تؤخر . وآخر صبرهم موظف مثلى لا تزيد إقامته بينهم أيام ، لا يتركهم إلا إذا خرج عليهم «بخلب» جديد . . كأن الجامع لم يعش طول عمره بينهم بخير لا ينتبه له أحد . . لم ترتفع منه شكوى . وما الذى سيغير تنظيف الجامع فى حياتهم ؟ لن يعلو ثمن القطن أو تنقص ديونهم مليما واحدا ولو دهنوا جدرانه بالذهب وفرشوا أرضه بالفضة . .

وانتهى العمدة من تمهيده وبدأ يتمهل فى الحديث وهو يدور بوجهه عليهم . . هو يقترح عليهم أن يتبرع كل منهم بما يقدر عليه حتى يشترى للجامع حصيراً جديداً . .

تلكأ الجميع فى مبدأ الأمر ، واحتج واحد منهم أنه لا يصلى فى الجامع وربما لم يدخله منذ شهور ، واقترح ثالث أنه لا يجب فرش كل الجامع مادام أنه لا يمتلىء ويكفى نصفه ، وتكلم آخر عن المقاس والأسعار ، ولكنهم انتهوا جميعا بالموافقة . . وجاء الصراف بورقه ودواته وبدأ يكتب وهو جالس القرفصاء .

هنا قال الشيخ درويش :

- انت حطيت إيدك فيها يا مقدس خليل ؟ والله ما هى فالحة . .

فضج الجميع بالضحك ، وساعد هذا المرح على فتح نفوسهم ، وتوالت التبرعات ، تبدأ من خمسة قروش ولا تزيد على العشرة . وفى لحظة التفت إلىّ الجمع كأنهم ينتظرون منى كلمة ، وفى صمت شامل سمع الكل صوتى :

- ومنى ريال .

لم تكمل الحلقة حتى كان مجموع ما تبرعوا به يزيد على ثلاثة جنيهات شيئا قليلا . . وانتظرت إخراج النقود فلم يضع أحدهم يده فى جيبه . وأدرك العمدة ما فى فكرى فقال :

- طبعا يا حضرة المفتش الدفع بعد المحصول ، انت عارف الفلاح دلوقتى ما حلتوش اللضا . . المزارع حاجة و«الميرى» حاجة . .

وخرجت منه كلمة «الميرى» كأنها حسرة ! . .

انتبه الكل لها . . وثبتوا نظرتهم على ، كل عيونهم انتظار وتطلع ، شعرت أننى أجتاز امتحانا وركبتنى الحيرة : هل أؤجل الدفع مثلهم فيقال انتهز الفرصة فضن بماله وهو غير معذور ، أم أدفع فيكون انفرادى بالغرامة دليلا على طراوة عظمى وقلة تجربتى وسهولة انطوائى تحت بلف العمدة «وتباتيكه» ؟

فى مثل هذه الموقف يركبنى الخجل ولا أدرى ما أنا فاعل ، ورغم شعورى بأن الدفع سينقص من قيمتى كرجل فى نظرهم ، ما انتبهت الا

ويدى فى جيبى ، ثم خارجة بين أصابعها الريال ، ثم لامسة يد العمدة ، ثم يذوب الريال عنها وتعود خاوية . .

أفهمنى الصراف بعد ذلك النظام المتبع بين الفلاحين ، فأول من بدأ الكلام وأكثرهم تبرعا هو أكثرهم (تكليفا) ، وتلاه الذى بعده وهكذا . . كل منهم يعرف دوره لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

انصرف الجميع وبقيت مع المقدس خليل . . وقبل أن يودعنا العمدة بثنا شكه :

- أهو كل واحد رقع كبايه شاى ، وان دفع بعد كده أقطع دراعى . .

هذه الملاحظة ، نصفها غيبة ، هى التى جعلت الصراف ، ونحن نسير الى الخيام . يستأمننى على دخيلة نفسه :

- الراجل ده شوف غنى . . أكتر واحد فى البلد عليه تكليف ، وبرضه يستنى لما يشحت من واحد غلبان بالقرش والمليم علشان الجامع !

وقلما يغتاب شخص إلا ويؤكل لحمه من ورائه ! . .

غلبنى النعاس تلك الليلة وأنا أسائل نفسى هل جاء دفع الريال عرضا ، أم كان فى ذهن العمدة عندما بدأ الحديث ؟ ربما رمى شبكته على بقية الجمع ، وربما كنت وحدى الصيد المقصود ! . .

***

مرضت وقمت بأجازة . .

لما عدت لبنى رزيق كان الفيضان على الأبواب . أين ثروة الغيط فى

اللون والعطر ؟ تعرى كما تسقط حلقات الشعر وتنكشف الرأس جرداء . . لم يبق إلا حوض جاف ، كله قبح ، عليه شبكة من الشقوق لا يحدها البصر .

أهى عطلة لازمة ، كبرهة تنفس ، تستعاد بعدها القوى ، أم هو موت أصيل بعد حياة عارضة ؟ هنا وهناك جذع من حطب القطن معرى الجانب أو على رأسه جلدة ذابلة . . فيد الفلاح إن لم تقو على نزع العود قصفته . . وكان حمارى يتخطى هذه الجذوع ويتحاشاها جهده ، يستأمن حافره من بين الشقوق مكانا ، بين الحين والحين ، تخونه الأرض وتنهدم تسد الشق ، فيهوى مؤخره وتتقوس أرجله . . ولم ينج من العذاب إلا بعد أن وصل لمبدأ مدق لايزيد عرضه على الشبر ، يتعرج ابيضاضه وسط السواد .

وجدت الأهالى فى هياج مكتوم ، جاء للبلد بعض تجار القطن واشتروا المحصول فامتلأت الساحة أمام دار العمدة بحلقات جالسة على الأرض يتحاسبون ولا ينتهى نزاعهم إلا على يد الصراف يقسم لهم القرش الى بارة ودانق ، ويوزعه على ١٤٤ حصة . . على وجوه الجميع حدة ، لأرجلهم عند المشى ضغط على الأرض ، كلهم مسرع هنا وهناك .

انتهى زمن الصبر والتطلع والتدين . . كان هذا فى زمان مضى . . عندما كان فى حجر الفلاح حفنة من بذور ميته كالحصا (ولو أن يده لاتقع على حبة منها الا وارتسمت فى ذهنه شجرة تكاد تسقط للأرض من ثقل حملها) . . بين البذرة والشجرة شوط طويل ، كثير العراقيل ، فالقطن ذو آفة ، ملعون . . يدفن الفلاح البذرة وقلبه وجل : هل تنبت أم تتعفن

وتموت ؟ ومرجع هذا ليس إليه بل الى الله . . يقف بين يديه خاشعا . . كله رضا . . قناعته لاتحد . . لا يطلب - الآن - إلا شيئا واحدا ، أن يهبها الله من نفحاته حياة تجنبها شر ظلمات الأرض وتريها النور .

ويخرج منها بصيص أخضر ، ساق هش مترف ، تتعلق به ورقتان رقيقتان . . يحمد الفلاح ربه ، ويرمق النبت مشفقا ، لو حلَّ الصقيع ذوى فى طفولته ، أو هبت الريح ارتمى صريعا ، قد يورق ، وقد يذبل ، لله مرة ثانية التفاته ودعاؤه ، يارب ! - وكله تضرع - دوام نعمتك على عبدك الحامد الشاكر ، أمله وثقته فى رحمتك . . لو باركت للعود الرقيق فاستغلظ واشتد ! يصبح الساق اللين عودا صلبا . وتنتشر حوله الأوراق ، فهذا وقت شبابه ، تتفسخ له أزهار كالكؤوس ويضوع شذاها .

ولكن ما تفعل قوة الشباب أمام الآفة المهلكة ؟ كم من شجرة فى عز بهائها صوّحت وظلت وسط الغيط كالكسيح المقعد ؟ ياإله العالمين - وكله استكانة - هذا صنع يديك فاحرسه . . من فيض كرمك منه بالنماء ومر اللوز ينبثق !

إذا تحقق رجاؤه نسى الفلاح الشجرة وقصر اهتمامه على ثمارها . هل تتفتح أم يغيض ماؤها وتحمر ؟ . . إلى الله من جديد ، يامولاى - وكله عبادة ! - هذه المرة أيضا ، أنا بين يديك ! . .

وهكذا دورا بعد دور كأن الله عنده أحد الحكام يستطيع أن يمكر عليه ويستدرجه خطوة خطوة إلى تنفيذ أغراضه ، فهو ما يكاد المحصول يتجسم أمام عينيه حتى ينسى خشوعه وخضوعه . . لا يقف جشعه عند حد . . لا يكفيه من الماء إلا ماتخوض فيه ساقاه ولاتمتلىء عينه ، لا يهمه أضر زرعه

أم أفـاده . . عينه ليست عـلى الله ومعونتـه ، بل عـلى أسعار البـورصة وأخبارها . . تتيقظ فى نفسه روح المناجزة والمصادمة . . يقف على رأس غيطه وليس أسرع منه للعداء والهجوم . . يحرسه بالنهار واقفا وبيده نبوت ، وفى الليل راقدا على بندقيته ، يسعل بين حين وآخر ليجاوبه زميل مختف بطلق فى الهواء . .

لايبلع ريقه إلا إذا دخل الكيس منزله ، وعند قبض الثمن تربكه النقود ، ويحتار ماذا يدفع وماذا يبقى ، ولا يستفيق إلى نفسه إلا وهو صفر اليـدين . . كما بـدأ انتهى . . الأمر لله . . عـلى أن يكـون اللقـاء مع المحصول الجديد !

***

لم أقابل العمدة ، فهو ينزل للبندر كل يوم «ويفاصل» على المليم وحق «القبانة» على من تكون . لما رأيته بعد ذلك وجدته عطشا يكرع من الماء ولا يرتوى ، كلامه أعلا نغمة وحركاته عصبية ، جنّد كل الخفراء لتحصيل المتأخر له ، وأطلق بعض أتباعه ينامون على أكياس القطن يحجزونها بالقوة الى أن يسدد الإيجار . .

ومكثت برهة متردداً ، أعتقد أن العمـدة أدرك ما يجـول بذهنى إذ شككت فى صدقه وهو ينادى خفراء ويرسلهم فى حـدة مفتعلة واهتمام موهوم ذات اليمين واليسار . . منذ متى هذه الهمة ؟ فى نظرته إلىّ شىء من اللوم والتقريع . . الا أميز فأرى أنه جم المشاغل ليس لديه وقت لتضييعه فى استرضاء أهواء موظف مثلى ؟ أين الحماسة الملتهبة والحث على التبرع من برودته الآن واستصغاره للأمر ، كأنى سأحادثه عن لهو أو العوبة . .

شيء من العناد وحب الاستطلاع لمعرفة مدى مراوغته جعلنى - رغم تهربه - أواجهه بسؤالى :

- تم إيه فى الجامع ؟

لاشيء . . فليس هو وحده بل كل أهل البلد مشغولون فى أعمالهم لا يجدون وقتاً يهرشون فيه رؤوسهم . . كان الله فى عونهم . .

لما فارقته شعرت أنه أسرّ فى نفسه إصرارى وأضمر أمراً . . وكنت أنا الخاسر . . فقد أخذ - بعد ذلك - يلاحقنى فى المستشفى ويزورنى صباح مساء ، يشكو لى نكول أهل البلد عن وعودهم وإنكار أكثرهم الاشتراك فى التبرع . . والباقى يتهربون منه ، وقد يرسل الخفير للرجل منهم أربع مرات فى اليوم الواحد فلا يظفر بمليم . . اعتذر بعضهم بالإفلاس وأقسم آخرون أنهم خرجوا من الموسم مدينين لشوشتهم ، وأطلق العمدة العنان لحدته ، وخلط أحاديث الجامع بالأزمة ووقوف الحال . . هل أصدق أن شيخ البلد اختبأ فى داره وأنكره ابنه ، ومع ذلك فضحه سعاله . . وبأى ثمن ؟ من أجل خمسة قروش . . آمن بالله ياحضرة المفتش ، الراجل مش لاقى ربع دره . . حالته وحشه خالص . .

وهكذا ، وهكذا ، ثم يخرج من هذا إلى تزكية نفسه ، فهو لم يكتف برسله والخفراء ، بل اضطر أن يمر عليهم فى بيوتهم ، فعاد - وهز الأبى الأنوف - والكسوف يقطر من وجهه .

ورغم حدته وشكواه من كسوفه ، كدت أسمع التشفى يمتزج فى كلامه . . كأن الغلطة غلطتى ، وأنا المسئول عن تعبه ومشاويره الضائعة ، وعن تصرف أهل البلد جميعاً . . التشفى لأنه برهن لى أخيراً على أنى كنت

قصير النظر قليل الخبرة ، ولو أننى تركت له الأمر من مبدأه لصرفه وأراحنى وأراح نفسه وأراح الناس جميعاً . .

وكان العمدة فى كل هذه الأحاديث يكثر من التفاصيل والزخارف ، وقد علمت فيما بعد أنه كان فى أغلبها كاذبا ، وأنه ما تحرك من مكانه ، وكل ما فعله أنه أرسل مرة أبلد الخفراء لأبخل المتطوعين . . هو صاحب الفكرة وهو الذى وأدها . .

لا أدرى أى دافع دعاه إلى هذا النكوص ؟ لعله هو البخل الأصيل فى خلقه . أو لأنها أول تجربة يجد نفسه فيها مشتركاً مع أهل البلد باختيارهم فى عمل خيرى دون تدخل الحكومة . . ففرح للفكرة واستسهلها ، وعند التنفيذ فاتته الثقة بنفسه وببلدياته . . أو ربما كانت الحقيقة أنه وافق على الفكرة لا لشىء إلا أن يتملق موظفاً فى أول عهده ليضمن قضاء حاجاته . . فلما انتهى الموسم وسمع بقرب مغادرتى للبلد ضحى بوسيلته لسقوط غايته . .

لم أتعب نفسى فى تعرف السبب فيكفينى ما يتعبنى به العمدة من ملاحقته لى كل يوم ولته وعجنه وإلحاحه فى إيقافى على كل التفاصيل . . صدمته ذات يوم - لأنقذ نفسى - وأوقفته عن هذا التهريج . . لم أكن أقصد التخلص من مبالة الجامع بقدر ما أردت التخلص منه ، لأننى لم أتنازل عن ضرورة تنظيف الجامع ، وفكرت أن أعالج الموضوع رسمياً حرصاً على صحة البلد . .

***

وذات صباح هدمت الخيام فتهاوت إلى الأرض - رغم خادع

منظرها – وطوينا طنبهنا ، وانهدم السور وتضاءل المستشفى إلى عدة صناديق سارت بها طائفة العمال قاصدة بلداً قريباً حيث قررت الصحة أن نستقر بها شهراً . .

مررت بركوبتى على الدوار . . وكان العمدة كعادته على دكته ، فوقف لى كأنه يستعد لخطبة ، وأخذ يكر على سمعى اسطوانة التملق الذى اعتاد أن يكيله لكل من يحتك به من الموظفين . . لم يأت للبلد موظف مثل فى الطيبة واستقامة الخلق . . البلد كلها لن تنسانى ، فضلى على الجميع ، ومعروفى إلخ إلخ . .

ووضع العمدة يده فى يدى . . فى تلك اللحظة تذكرت شيئاً كان غائباً عن ذهنى . . لمسة اليد هى التى نبهتنى . . ففى لمسة مثلها ذاب من بين أصابعى ريال صحيح من أجل الجامع الذى سيظل طول عمره كثير العناكب والتراب ، كريه الرائحة . . هل نسى العمدة هذا الريال ؟ ليس فى هيئته ما يدل على التذكر . .

فهل أطلبه ؟ فتنقلب مصافحة الوداع – تؤخذ على غرة – إلى تراجع وانكماش ؟ ثم هل هناك بعد ذلك أمل فى الحصول عليه ؟ ربما أحالنى على الصراف ، والصراف على شيخ البلد ، وربما تبين الأمر فى النهاية أنه دُفع عربونا للحصير ، وبائع الحصير لا يرد العربون . .

ووقع نظرى على الجامع . . فى نهاية الساحة متضائل قصير . . كأنه بجانبى شحاذ رث الملبس سهوت فأعطيته خطأ قطعة نقود أكبر مما كنت أنوى . . هل أبقيها أم أسحبها ؟

انبنى ضميرى أنى أدخله موضوعاً للمساومة . . لقد تبرعت بالريال عن طيب خاطر ، من أجل الجامع الفقير ، فليبق نوعاً من الزكاة والقربى والمحبة ، ولا يهمنى فى أى جيب بقى . . على أن للنقود سحراً قويا . . لم تطاوعنى نفسى أن أترك هذا الريال الصحيح - اربعة مثله فيكون لدى جنيه - ولأى سبب ؟ لا أشك أن العمدة سيعتقد أنه ضحك علىَّ ، وأننى لم اقو على مطالبته إما خجلا وإما مراعاة له . .

لا يتعبنى إلا مثل هذه المشاكل الصغيرة . . هى تافهة ومع ذلك تختصر ويتبلور فيها ما هو أهم وأعظم . . كل مرة تحيرنى بتعدد نواحيها وأشكالها واحتمالاتها وما لها وما عليها . .

لا ادرى كيف كنت سأنتهى من هذه الأفكار وأخرج برأى أأطلب الريال أم لا أطلبه . . مرت علينا - وأنا لا أزال فى ترددى - حمارة صغيرة لها أذنان متصلبتان ، وعيون سود كبيرة واسعة . . فى حركاتها شقاوة ، وربما كانت فى زمن طلبها . . ما أشعر إلا وحمارى يندفع فجأة وراءها وينقذنى من العمدة ومن ترددى المريض . .

وقد لا تنتهى معظم مشكلات الحياة إلا على يد أمثال هذه الحمارة ! . .

(جريدة «البلاغ» ، ١٩٣٧/٩/٢٤ ، ص ٣ ، ٢.)

إزازة ريحة

صافح الأيدي الممتدة واحدة بعد اخرى ، وراقب المناديل تلوح له حتى غابت ، لا فرق بين الملح منها والكسول المجامل ، وبدأت المساكن تجرى أمامه ، وتضاءلت العمارات الكبيرة إلى منازل كالأقزام ، ثم ذابت فى بيوت الفلاحين المغطاة بالقش ، وانساب القطار بين الغيطان وهو لايزال يطل من النافذة ، تتملص البلدة من قبضة نظرته سريعاً ، وتصبح صورتها كأنها رجع الصدى .

وكانت الشمس قد كمل غروبها فلم تبد له طهطا سوى قطعة من الليل أشد سواداً ، يشع من وسطها شريط ضئيل من النور ، هو الشارع العمومى ، على رأسه القهوة التى اقتطعت لنفسها من عمره نصيباً. لقد أقله هذا القطار غير مرة ولكنه لم يتطلع لطهطا وهو متهلل الوجه كما يتطلع هذا المساء ، لأنه يتركها بلا عودة ، فقد فاز أخيراً بنقله إلى القاهرة بعد أن مر عليه فى وظيفة وكيل نيابة طهطا سنتان ، والنفور بينه وبين هذا البلد



يزداد يوماً بعد يوم ، وكان أكبر ما «يقلقه» غيظا أن يجذب من منزله في منتصف الليل ويقوم «المركز» معه ويقعد . وبعد رحلة شاقة يصل إلى مكان الجريمة فيجد القتيل فلاحاً في جلباب أزرق قديم ، حافي القدمين . قد يفتش منزله ومنزل المتهم - وما هي منازل بل أكوام من الحجارة !- فلا يجد فيها حفنة من الذرة ، ما هي الجريرة التي يمكن أن يقترفها فلاح في مثل هذا الفقر حتى يجازى عليها بالموت ؟ . .

فالقتل عند سامي - وهو متأثر في ذلك بقصص إدجار والاس - نوع من الترف ، وأكثر ما يغيظه أن يكون القتل هو الترف الوحيد الذي يعرفه الفلاح ! وينصرف سامي إلى تحقيق القضية ، وهو متأفف حانق ، يأبى أن يشرب القهوة التي يقدمها له العمدة لأن بنها قليل وطعمها كالعسل . . لن يصدقه واحد من الشهود ، ولن يكشف له أهل القتيل عن مكنون سرهم ، يلمح في ابتسامة العمدة وأعوانه أضواء من السخرية والتهكم . . وتمضي الساعات والقتيل لايزال ملقى وسط الغيطان كأنه نائم على جنبه ، وجهه حتى لم يضع الموت عليه قناعه بعد ، فالقتل جاءه مفاجأة ، ظهره ممزق بكتل مشوهة من الرصاص أطلقها عليه من بندقية - شغل يد - متربص قريب . انكفأ فوق الجثة جمع من النساء ، لا تفرق بين العجوز والشابة ، فليس في قبضة الفقر والشقاء إلا عمر واحد ، لهن حركة الغربان العطاش لقيت بعد لأي ماء ، ثيابهن جرب السواد ، أفلا ينقضي حدادهن أبداً ؟! يصرخن ويترنحن ويرفعن إلى الواقفين والسماء ، نظرات تبحث عن الرحمة فلا تجدها ، فترتد ملؤها العذاب ، كأنما قد دهمهن مخاض ممزق عنيف . .

ليس هو الآن ذلك الشاب القاهري العزيز الذي أذهله في أولى قضاياه

ان يرى تحت جلباب القتيل سكينا نحيلا مربوطة بقطعة من الجلد حول ساقه ، ثبت عليها نظرته هربا من رؤية وجه القتيل المعفر ، وسماع حشرجة الدم المنحدر إلى معدته من كسر قاع جمجمته ، لم يكن القتل بالرصاص – فلعل القاتل أفقر من القتيل ! – بل بالنبابيت . . عجب لهذا السكين ولم يخجل أن يسأل عن سره ، فقيل له «كان يعده من قديم ، لا يخرج من داره إلا إذا ربطه ، توقعاً ليوم أن يفاجئه عدوه فيصرعه وينكفىء فوقه ليخنقه ، فيهوى للأرض ، موهما أنه انهزم ، ولكن يده تمتد بخبث ومكر إلى هذه السكين فيشدها ويدفنها فى بطن غريمه المنتصر !»

لقد ألف الآن رؤية القتلى ، سواء ماتوا بالرصاص أو بالنبابيت أو بالفأس . . ولم يعد يكربه منظر «طلوع الروح» وإذا ذكر هذه الحوادث فكأرقام مواد وملفات بينه وبين «الرياسة» . .

وليست الجريمة وحدها هى التى كرّهته فى هذا البلد ، بل إنه ملّ – أليس له الحق – من الجلسة المتشابهة كل يوم فى القهوة مع الأصدقاء ذاتهم والحديث هو هو لا يتغير ، ينحصر فى مؤامرات تلك المرأة العجيبة التى تنتقل بين الجميع وتغش الجميع والمتحدثون كلهم أصدقاء الزوج ، حضرة . . . الموظف الجالس بالقرب منهم يلعب الطاولة . . . امتحان نفوسهم ليس هو مصارعة الفحش والتمنّى بالفضيلة والعفة ، بل التردد بين احتقار هذا الزوج أو الرثاء له . . وهذا منتهى كرم الأخلاق والنبل فى نظرهم . .

حقاً إن سامى لم يشارك فى هذه الأحاديث ، ولكنها كانت تصل إلى أذنيه ، والتهمة بأنه كان ينتظرها ويتلهف على سماعها ساقطة لعدم كفاية

الأدلة» . . فكيف يسع من يعيش فى هذا الجو الخانق قليل الأخبار أن يمنع نفسه من الإنصات لمثل هذا التهامس والتسلى به ؟ لقد تعمد أن يفهم الجميع أنه بعيد عن هذا الجو . . مترفع عن هذه الدنايا والسفاسف . . ويبتسم سامى لأنه يذكر أمسية فى منزل أحد أصدقائه إذ تدخل عليهما هذه المرأة ، فيهتم صاحبه بإسدال الستائر ويهمس لها أن لا تكون ضحكاتها عالية . . لتكن خليعة ولكن بصوت خفيض حتى لا يسمعها الجيران . . «إحنا مش فى مصر والا إسكندرية ، ولا حتى وجه بحرى ، إحنا فى الصعيد فى طهطا ! » يستطيع سامى أن يقول إنه لم يسع لهذا اللقاء ، ولم يرج صاحبه أن يهيئه له ، وإنما كان يعلم ، بفضل أحاديث الهمس - أن صديقه أكثر الجمع سلطاناً عليها ، وليس بينه وبين هذا الصديق «تكليف» فاللقاء جاء مصادفة لا أكثر ولا أقل . . ساق سامى إلى منزل صديقه دافع واحد : الفضول - أو هكذا خيل إليه ! إنه لا يريد إلا أن يرى هذه المرأة التى تدور حولها الأحاديث ، إنه يجب أن لا يقل علمه بها عن بقية جلسائه ، ولا يقول «عن خبرتهم !» لن ينصت لحديثهم فيما بعد إنصات الأعمى . ومن منا لا يكره الرجم بالغيب حين نتحدث عن النساء ؟ ولكنه لم يكد يقترب من الباب حتى دب فى جسمه دبيب الحمى ، ونزل الشيطان قلبه يوسوس له ، ثم أتاه إلى رشده مؤدب قاس رحيم فى آن واحد : اليأس ! فلا أقل له - وهو العاقل الذى لا يخدع نفسه - فى أن يظفر الليلة بشىء فى منزل صديقه ، سيجرح كبرياءه أن يجىء دوره هو الثانى ، وصديقه أقل منه فى الوظائف درجة ! وسيمنعه خجله والشعور بذلة اللقمة تلقى إليه إحساناً متستراً فى ثوب الإكبار من أن يطالب لنفسه بالدور الأول . . ومحال أن ينحط ويقبل القرعة بينهما . . فهو والحمد لله لا يلعب القمار قط ! .

ولما أشبع سامى فضوله ورأى هذه المرأة رأى العين ، وعرف وجهها وجسمها وسمع صوتها ونبراته ، تخاذل لا لأن المرأة ذات فتنة أسرته ، فهى وَقاح عامية الذوق واللفظ ، بل لأن الخلاء الذى خلفه إشباع الفضول فى نفسه شبيه بمناطق الفراغ فى الجو يجذب إليه الأعاصير .

وعاد الشيطان يوسوس له فى قلبه من جديد ، وكاد يزل ، لا يهمه أن يكون الأول أو الثانى ! ولا يكربه أن يلعب القمار أول مرة ! ولكنه تجلد ، يمنعه كما يقول لنفسه إعتزازه بكرامته . أم هل هى الحكمة والدهاء وحسن السياسة ؟ وهو يحب أن يتصف بها . إنه لم ينطق بكلمة واحدة يستجلب فيها ود هذه المرأة إليه . وصديقه شاهد عدل على ذلك . ينبغى أن يفهم الجميع أنه «شبع» – أم لعله يريد أن يقول إنه متخم ! – وأنه لا «يندلق» على أول امرأة يقابلها ؟ أى فتى هو يحسبون ؟ إنه ذو ذوق ومزاج لهما تمنّع الحسان ودلها . وإذا كان من اليسير الوصول إليه – أو إذا كان هذا هو المأمول عنده ! – فمن العسير وفوق العسير أن يسعى هو بقدميه .

ولكن نغمة صوته خلال الجلسة كلها – سواء دار الحديث عن الجو أو عن اللهو – خيط دقيق يلتف حولها يجذبها إليه شيئاً فشيئاً . . الطريق مفروش بزهر مسحور لا يُرى والباب يُفتح بلا صرير . . فإذا تجلد سامى فلا شأن له بعد ذلك بالأقدار التى قد تسوق هذه المرأة – لحكمة لا نعلمها نحن ولا يعلمها أحد – إلى أحضانه ذات أمسية فى خلوة فى داره هو . .

ونظر سامى إلى ساعته وتثاءب وضرب فخذه بكفه واستأذن فى الانصراف لأن وراءه قضية هامة قد يكون الحكم فيها هو الإعدام . .

ومرت الأيام ولم تحقق الأقدار نزواتها ، ولم ير سامى هذه المرأة مرة

أخرى ، لا فى داره ولا فى دار صديقه ، وحسناً فعلت لأنه يكره السطو على عرض رجل غلبان . إذا كانت قد نسيته فهو أيضاً قد نسيها . . ومادام سيودع طهطا هذا المساء فهو يغفر لهذه البلدة العنيفة كل شىء ، بل سيذكرها كصديق بود كبير ، لأنها قدمت له أمثلة غريبة أخرى لم يكن يحلم بوجودها فجعلته خبيراً بالمرأة ونفسيتها وإنه معتز بهذه الخبرة سعيد ، وبدأت ذاكرته تعيد عليه مغامرات فـ . . . ابنة التاجر الكبير التى كانت تقفز على أربعة أسطح فى منتصف الليالى لتصل إليه ، هى فتاة غريرة تتفرج على الصور المعلقة ورسوم كتبه باهتمام وشغف وتبدو نواجذها لأتفه الأسباب . هذه الفتاة أسرت قلبه أياماً طوالاً ، وإن كانت شغلته منها «النفسية» أكثر مما شغلته كامرأة - فالعلاقات بينهما لم تتعد ما تسمح به فتاة تعلم أن بكارتها شرط حياتها . . وكان يدور فى ذهنه إلى أن يتعبه هذا السؤال : هذه المغامرات خطرة ، وقد تسمم حياة رجل مجرب ، فكيف تزول مخاطرها لفتاة صغيرة مثلها ؟ هى تدوسها بأقدامها فلا تصل إلى فمها الحلو ، ولا تقوى على أن تختلس من ابتسامتها بعض ما بها من وثوق بالنفس وإقبال على الحياة والتأكد من سلامة الخطوة . وكاد يؤمن بأن كل مغامرات المرأة غريزة وليست نتيجة تفكير وتدبر ، بدليل هذه الفتاة . ولو حدثها سامى عن مبادئه واعتقاداته وآرائه فى الحب والمرأة لما فهمت شيئاً ، بل لزاد ضحكها وسرورها ، كيف فاته إلى الآن أن يفهم سبب زياراتها ؟ إنها تبحث فيه ، لا عن رجل ، بل عن وكيل نيابة . أكبر همها أن ترى عن قرب ولو بثمن غال هذا الموظف الذى يخشاه الناس جميعاً وتُحكى عن سطوته الأقاصيص والذى شغل أباها وحرمه النوم عندما كان يحقق معه فى إحدى الشكاوى . .

وليست هذه الحوادث الجمة – ولم تزد زيارات هذه الفتاة له عن مرتين – هي جماع ما خرج به من تجارب وخبرة .

ففي ذاكرته أيضاً . . . امرأة كان قد اطلع بفضل وظيفته في ملف قديم على قصة لها . . جاء ذكرها عرضاً في شكوى ضد أحد المدرسين انتهت بنقله إلى إسنا عقاباً له على سوء سلوكه . . .

جاءت لداره ذات يوم في زي فلاحة تبيع المسلى والبيض ولما خلعت درعها الأسود رأى تحته ثوباً مزركشاً بالزهر ، من القاهرة أو على الأقل من أسيوط ، لم تكد تكلمه حتى انهمرت من عينيها الدموع . . إنها في مأزق شديد ، لها شكوى عند البوليس ، ومأمور المركز يساومها . . وهي امرأة عفيفة . . فلم تر مناصاً من أن تسعى إليه لترجوه أن يأخذ بيدها . . فأخذ أول الأمر بيدها ، ثم حين رآها تمتدح نبله وشهامته وحسن ذوقه أخذ أيضاً بذراعها وجيدها وشفتيها . . إنه لم يستعجلها ، ولم يطلب جزاء على مروءته ، بل هي التي وهبت إلى فتنته وسحره نفسها . . وتكررت زياراتها ووجد عندها من الإغراء والحذق في أمور كثيرة ما شغله أياماً وأذاقه سعادة شيء يقرب من الحب ، لأن المبيت عنده شيء أعظم خطراً ، يعتقده الناس جميعاً . . ولكنه رآها تختم اللذة أحياناً بالبكاء وتقول إنها زلتها الأولى . . ثم ماذا يحدث لها عندما يفارقها مسافراً إلى بلد آخر وهذا ما لابد أن يحدث ذات يوم . . ويضحك سامي في سره ، لأنه ليس بالغر الجاهل وهو يعرف ماضيها . . فهل يصارحها به ؟ إن الكتمان من علامات الرجل القوي ، وحدثته نفسه أن يؤجل المصارحة إلى آخر ليلة له في طهطا . . ولكن لا . . إنه ليس بالرجل السافل ، بل سيقبلها من كل قلبه ويدعو لها بالخير . . وأنسته هذه العواطف النبيلة أن يراجع كشف مصروفاته ليرى

كم اشترى لها من الأثواب والحلى . . لعلها هى سبب ضائقته المالية التى يشكو منها . .

ويحدث سامى نفسه - حين يخلو إليها - بأن هذه المغامرات كلها من نوع «راق» غير مبتذل . . فليس أروع من الحب فى بلد صغير يرفرف عليه دائماً ظل الجريمة . ويسمع فيه كل يوم عن فتاة دفعت حياتها ثمناً لمخاطرتها . . ومع ذلك فهو لم ينس فى لحظة واحدة ما يجب لوظيفته عليه من احترام وابتعاد عن المهانة . . ولو أراد - كما فعل أخونا السابق - لعد معارفه من النساء بالعشرات . ولكن هؤلاء الناس ! ماذا يحسبون علاقة المرأة بالرجل ؟ وما الفرق بينهم وبين الحيوان ؟ إنه يستطيع أن يفخر - لو أراد ! - بأنه لم يتدن إلى السلع السوقية بل اقتصر على القيِّم المخبوء ، وكان جزاء صبره وقلة بضاعته عوالم من العواطف لن تصل إليها أوهامهم .

واحتفظت مغامراته كلها بعطرها وشذاها لأنها ظلت سراً لا يعلمه أحد ، وابتسم سامى ، يرى نفسه فى حلم لذيذ ، جالساً وسط أصدقائه بالقاهرة ، كل منهم يهرف بحوادثه ، وهو صامت . هؤلاء المغفلون ! ذلك الذى يظنون أنه «خام» لا يزال على البر إنما فاقهم فى العوم والغطس . .

وكان سامى لا يزال بالنافذة ، وانحرج القطار فاستدارت البلدة وتجسمت كلها أمامه ، وضاقت عيناه وهو يبحث هنا وهناك عن بعض المشاهد التى يعرفها حتى غابت عن نظره . . تركها القطار . .

طهطا راقدة بين الغيطان والنخيل . . حيوان مشوه ، جسم رابض

على الأرض لا فكر له ، عيناه واسعتان ولكنه أعمى ، يتنفس ويحيا ويجد سبيله فى الحياة بفضل غريزة قوية . . نومه وجوم ، واستيقاظه تحفز ، وسكونه بين هذا وذاك مخادعة ، وتنهد سامى يزيل عن صدره كابوساً ، وعكف على نفسه فإذا هو ساخط عليها بعض الشىء ، لقد شغلته مغامراته من أن يتابع قراءاته . . وها هو يعود بقصص هجارد ، وشارلز جارفز ، وإدجار والاس ، وفيكتور مرغريت دون أن يقرأها . .

ولكن كل هذا العهد قد انتهى . . فهذا القطار الذى أنقذه من طهطا مع بهمة الليل سيسلمه للقاهرة فى وضح الصباح ، بلد مشرق لا يعرف وحشة الصعيد ، رحب الصدر ، تتوه فيه الفتنة القذرة ، وتذوب الجريمة المنكرة فى مكانها ولا تسمم الجو ، سيعود إلى كتبه وقراءاته ، وسيبدأ كتاب الفلسفة الذى أرسله له أخوه الطالب بالجامعة ، وسيتمكن – وهذا ليس بالقليل عنده – من أن يلبس مرة أخرى قمصانه الحريرية .

***

ومرت أسابيع وشهور وسامى لا يفطن أن سعة صدر القاهرة تؤدى به إلى التشتت والضياع . . تتجاذبه زمر الأصدقاء من جروبى إلى سان جيمس . . ومر نصف العام وكتاب الفلسفة لم يُفتح وعلمه عن القصص الأخرى نوع من الرجم بالغيب . . ومع ذلك لم ينح على نفسه باللائمة ، لا لأن حياته الجديدة المشتتة قد أنسته مطامعه – فلن يموت فى قلب سامى ، مهما كانت الظروف ، هذا الطمع المبهم إلى شىء يرقى به ويميزه عن سائر الناس . . ولكن سر هذا الرضا غير المنتظر يعود إلى بار صغير عندما دخله بدأ فى حياته – كما يعتقد هو – عهد جديد . .

لايتردد على هذا البار أحد من أصدقائه ، فالصدفة المحضة هى التى قادته إليه ، كان يسير ذات يوم فى شارع عماد الدين فإذا به يقابل أحد أعيان طهطا المعممين . . وإن كانت عمامته لاتقيه من الانغماس فى الكأس والارتماء فى أحضان النساء ، لو أخذه إلى جروبى وسان جيمس لضايق أصدقاءه وضيفه معا . وتلفت فإذا هو أمام بار على ناصية ، موائد قليلة وأناس أقل ، لاضجة ولا ضوضاء ، بل أنوار خافتة وأركان مستورة ، وأدار سامى الحديث بلباقة فروى له العين المعمم الخليع آخر فضائح طهطا ، هل يذكر «ح» المرأة التى فضحها المدرس ، والتى تلوك سيرتها الألسن . . لا ؟ ألم يرها ؟ كيف ذلك ؟ يالها من ماكرة ، إنها قصدت بيت خلفه وكيل النيابة الجديد فى زى فلاحة تبيع المسلى والبيض . .

لم ينقبض قلبه ، ماله ولها ، قد نسيها الآن كما نسى طهطا كلها ، إن لكل جو عواطفه وهواجسه ، صادقة كل الصدق فى زمانها ، ثم كاذبة كل الكذب إذا بدّل صاحبها جوا بجو . .

واقتضب سامى الحديث وأفهم محدثه أن الجلسة قد انتهت ، فقام ضيفه وهمّ سامى بالخروج أيضا فإذا به يقع فى ضيف جديد ، ولكنه غير معمم ، بل له طربوش . هو فى مكانه من صاحبه كاللافتة ، تعلن عن معدنه ، وقد تتحدث عن ماضيه أيضاً . . فهو طربوش له لمعة ، قمته أنظف من حافته ، إذا قلبته (لأن صاحبه لايضعه على الكرسى مقلوبا أبدا) رأيت الخوصة مغبرة ، والجلدة سوداء تفوح منها رائحة زيتية . . لاعجب أن كان صاحبه يؤمن أنه أخفق فى الحياة أولا لسوء حظه وثانيا لقلة

الجميل والخير عند الناس جميعا . فهؤلاء السادة الذين يَزْوَرون عنه إذا رأوه فى الطريق ، ألم يكونوا سواسية ، زملاء مدرسة واحدة ؟ إذا كان سوء الحظ قد أوقفه وساروا ، أهذا وحده عذير لهم بأن ينسوا أبسط واجبات الذوق والمجاملة ؟ وأقبل عبد الكريم على سامى يحييه :

– مش فاكرنى ؟ مش كنت جنبك فى سنة ثالثة رابع ؟ . .

وسامى – رغم تجاربه – فتى ذو حياء ، فأشار للزميل القديم – يتذكر وجهه بجهد – أن يجلس ونادى ليطلب له كأسا من البراندى ، فهذا أقل الإكرام فى بار . .

***

وأقبلت فتاة قصيرة القامة ، فى ثوب أسود ، قصير الأكمام ، تحمل الكأس وإناء الثلج ، وأعدت لعبدالكريم مشروبه ، وهى لاترفع إليه ولا إلى صاحبه نظرها ، ثم انصرفت لتنادى الخادم فيأتى إليهما بما يطلبان من «المزّة» .

لم يكن سامى قد انتبه لها عندما دخل البار مع ضيفه المعمم ، فقد انشغل بالحديث عن طهطا . . مَسّاها الله بالخير . . وشرب عبد الكريم كأسه جرعة واحدة ، وكاد سامى يهم بالقيام لولا أن رأى عينى جليسه المحمرتين تلتهبان . تنبعث منهما نظرة مفترسة ذليلة فظة نحو فتاة البار ، تلاحقها فى غدواتها وروحاتها . .

لم ير مثل هذا الجوع من قبل . . كأنما شعاع بصره مسمار محمى بالنار . . وضحك سامى فى سره ، وغلبه الخمول النفسى الذى خلفته

جلسة صديقه المعمم ، ولم ير بأسا من أن يطيل مقامه فى البار مع زميله عبد الكريم . . فلا يزال الليل فى صدر شبابه ، ومال على صاحبه يسأله :

- إيه الحكاية ؟ مين البنت دى ؟

- اسمها هنا سوسو . اسمها الحقيقى لغاية دلوقتى ما عرفتوش . لكن على مين ؟ إن كان اسمها من أسامى الجن لازم أعرفه ، أنا ماشى فى خطة ، يجى يوم أقولها بشويش لما تقرب منى «ياست فلانة ! ليه التقل دا علىّ ؟»

وضحك عبد الكريم ، يتصور منذ الآن انتصاره المرتقب .

- طيب ما تسألها ، يعنى هى تخبيه عنك ليه ؟

- أنا عارف البنت دى متكبرة على إيه ؟ بيقولوا عنها إن أصلها طيب ومن عيلة . لكن مين عارف ، ساعات تقول عزيزة ، وساعات سميرة ، لها ميت اسم . .

- انت تعرفها من زمان ؟

- لا من قيمة شهرين بس . وهو كمان ده أول شغلها . كان البار ده ناوى يفلس قبلها ، دلوقتى بقى أردغانة . . له زباين صُقْع صحيح . . كلهم عشانها . . لكن دى بنت بتلعب بيهم كلهم . .

ومال على أذن سامى يهمس :

- وحياة شرفى وشرفك ، كل اللى بيقولوه عليها كدب فى كدب ، ما تصدقش ولا واحد ، وحياة محبتك عندى ، ولا واحد طال منها حاجة . .

ودفع سامى الحساب ، وأخذت سوسو تعد النقود فى يدها ، قد أسبلت جفنيها وانحدرت رموشها على خديها . . فابتسمت ابتسامة خفيفة

وهو ينفحها «ببقشيش» كريم . . ثم التفتت لمائدة أخرى تقول :

– حاضر ، حاضر ، حالا . .

***

سار سامي كعادته إلى المحطة ليركب منها إلى منزله ، ووقف أمام تمثال نهضة مصر ينتظر الأوتوبيس ، فلما جاء عدل عنه لأنه يشعر هذه الليلة بميل غريب للتسكع ، فى عضلاته همود ، وفى ذهنه أرق . ودار حول التمثال ، فإذا بنسيم رقيق يهب على وجهه ، لقد انتهى اختناق العاصمة بازدحام أهلها ، وضع يده فى جيبه ، وسار ورأسه مائل . .

فكرة هذا التمثال ضئيلة ، تستطيع أن تقول عنها إنها صبيانية ، بدليل أنها نجحت عند مولدها كلافتة على دكاكين الحلاقين . . لو عُلِّقت فى القهاوى البلدية لم يكن بينها وبين صور الزناتى تنافر . . إنه لم يدخل منذ عهد بعيد قهوة بلدية ليرى كيف تتطور أذواق أولاد البلد ، وهذه الفتاة ماخبرها ؟ إن قلبه يحدثه بأن فى حياتها سرا . . بل إنه يجزم بأن شحوب لونها دليل على أنها مريضة بالقلب . . لقد لحظ – فى غفلة من زميله – أنها جلست فى مقعدها،أسندت رأسها إلى كفها وتنهدت . . أتكون ضحية أقدار ظالمة ؟ لقد فحصها بنظرة الخبير المجرب وليس هو بالجاهل حتى لا يلحظ أنها تفترق عن مثيلاتها . . ففيها شىء من رقى . . رقى روحانى . . يحيطها بجو مبهم غريب . . لم يسمع منها طول جلسته ضحكة خليعة ، ولم ير حركة مبتذلة ، هى شاعرة بتحديق الجلساء ، وأنها نهب نظراتهم ، ولكنها تتجاهل هذا كله ، هادئة النفس ، ابتسامتها لا تهبط إلى حد التكلف ولا ترتفع إلى حد الضحك على الذقون . . ولكن إلى متى تقوى

على صد التيار المتدفق عليها من أعين ملتهبة وسحن جشعة تدور معها أينما دارت . .

لشد ما يود أن لا تخفق ، كما أخفق مختار . . لا يصب فكرته الضئيلة فى قالب يلائمها ، بل يجعل لها قاعدة ضخمة ، فماتت الفكرة وظل الحجر ، لا شك أن سذاجة هذه الفتاة وترفعها وسموها الروحى تذوب شيئا فشيئا فى الوسط الذى تعيش فيه ، ولا يستطيع الرجل أن يستهويها بنغمة واحدة - ولو كانت رنانة ! - فترهف له أذنها وتستسلم له . . إنها الآن معقدة العواطف ، حياتها تجارب متصلة عن الرجل واستعراضها للكثيرين سيوقفها من الرجولة ، على نواح متباينة ، كل ناحية منها لها سحرها الخاص ، ألا تدل عيونها الساهمة على أن برأسها فكرة البحث عن رجل يجمع فضائل معارفها ولا تفوته نقيصة من نقائصهم ؟ . . إنه يؤمن بأن هذه الفتاة عميقة العواطف ، عميقة الشعور ، لها مزاج خالص لها ، هى به راضية ، ونوازع لا يشاركها فيها غيرها هى بها سعيدة . . فى ثوبها ويديها والتفات رأسها دلائل قد لا يفطن لها الجميع ، ولكن هو رآها وفهمها . .

وظلت صورة الفتاة تصحبه إلى أن دخل فراشه ونام وهو لا يدرى أيودعها أم يهدها اللقاء من غد . .

***

وأخذ سامى يقضى فى البار كل لياليه ، وبدأت حياته تسير فى برنامج جديد ، هجر جروبى وسان جيمس ، وكان من قبل لا يصبر عليهما .

ما هذا الذى قلبه من حال إلى حال ؟ إنه كزويعة حائرة قد خمدت ، أو نسيم رقيق يوشك أن يجن وينقلب زوبعـة . . لست أدرى . لـو رآه أصدقاؤه وهو جالس كل ليلة مع عبد الكريم على مائدة واحدة لما صدقوا أعينهم . . فليس هذا هو سامى الحريص أبدا على أناقة مجالسه وملابسه ، وأكله وشربه ، ولكن ماذنبه هو والظروف وحدها هى التى جعلت لهذا الصديق المبعوث قيمته الغالية ؟ لا تنحصر فى أنه يقص عليه أولا بأول مختلف الإشاعات التى تدور حول سوسو ، بل لأن سامى ، وهو لا يغفل لحظة عن كرامته ! - يعتقد أنه لو انفرد لاستلفت أنظار النـاس . . واستلفت نظرها هى أيضا . . وهو ما لا يريده . .

إنه ليس كبقية الناس ، والعاطفة التى استيقظت فى قلبه ليست عامية مرذولة مثل عاطفتهم . إنـه يحب الظلال والهمس والكتمـان والصبر ، والصمت عنده عنوان البلاغة ، هذا هو الغذاء الذى تعيش عليه روحه المهذبة ، ولـو أكلت مما يأكلون لماتت . . ومـاذا يهمـه من رَن عبد الكريم ؟ قد يبدو أنه يستمع له ، ولكنه غائب الذهن ، فى رأسه صور عديدة من حب يجمعه وهذه الفتاة . .

هـل تكون سـوسو تحقيق ذلـك الحلم الذى بعثته فى رأس سامى أحاديث أصدقـائه كـل ليلة منذ أن عـاد للقاهـرة عن سأمهم من حيـاة الوحدة ، ومن خسة الساقطات ، وتطلعهم غير المنقطع إلى فتاة - لا تزال فى عالم الغيب - فيها شىء كثير من الكمال والجمـال والتسامـح وكرم النفس ؟ تستقبلهم بابتسام وتودعهم - ولو كانت تعلم أن انصرافهم عنها بلا رجعه ! - بابتسام أيضا ؟ فهى التى تحمل عنهم أيضا وزر الندم . . فتاة تجلو نفوسهم وتفتح فى قلوبهم خزائن طال إقفالها ، فماتت فى ظلماتها

أجنة لو عاشت لكانت البذور والشموس . . وانطفأت ألوان صور ما أجملها لو رأت النور . . فأصبحت مسخا مشوها كثيبا .

وملأت هذه الأفكار رأسه حتى أصبحت شغله الشاغل ، على أنها كانت في كثير من الأحيان تخونه ، فبينما هو يدفعها إلى سماء عالية إذابها - وكأنها تهزأ منه - تهبط به إلى الحضيض وتشغله بأشياء صغيرة وتجسمها في نظره فيوقف عليها اهتمامه ويجد فيها ذهنه الذى يأكل بعضه بعضا طعاما يزيد بهمه وافتراسه لنفسه .

فقد أخذ سامى - يوما بعد يوم ، لا يمل ولا ينسى - يعد أثوابها ، ويراقب أحذيتها وجواربها ، وكل حركاتها وإشاراتها ، وأصبح ذهنه ترتج فيه متناقضات من حب وجوارب نيلون ، من آمال وأقراط ، من عواطف هائجة مكتومة وعقود من اللؤلؤ . . وأنا شيد غرام وصبابة وأحذية لامعة بكعب عال . . وأصبح يستطيع أن يحكم هل ثوبها جديد أم قديم ، وهل لبسته من قبل وكم مرة . وأسلمته هذه الرقابة إلى مرارة شك ينمو في قلبه شيئا فشيئا . .

- من أين لها هذه الملابس الغالية كلها ؟

لجأ إلى عبد الكريم وأخذ يبحث معه هذه العقدة العويصة :

كم يبلغ مكسبها في اليوم ؟ وهل يكفيها لشراء هذه الأثواب كلها ؟ واضطر سامى إلى الاقتناع بأن لها موردا آخر . . وجيبا لا ينفد . . ولكن من يكون صاحب هذا الجيب ؟

وبعد أيام جاءه عبد الكريم وهو يبتسم فبدت أسنانه الصفر :

«وشرفك اللى يضحك على ما اتخلقش لسه !» إنه قام بتحركات

واسعة ، واتصل بأحد كبار القوادين الذى يجمع فى العوامات هوانم العائلات وأبناء الذوات وأخذ يحاوره ويداوره إلى أن استخلص منه أنه يعرف فتاة البار وأنه يطلبها فى بعض الاحيان كلما وقع على صيد ثمين فتلبى ولا تتأخر . .

لم يدر عبد الكريم مختلف العواطف التى ثارت فى قلب سامى عند سماعه هذا الخبر . . هو من ناحية متألم ، لا لأن هذه الفتاة الصغيرة المريضة ، ضحية الأقدار الظالمة ، دمية تتبادلها اذرع خشنة حيوانية وأفواه بخراء أو مخمورة وإنما لأن ظنه بها قد خاب وحلمه الذى رباه وتعهده قد مات فى عنفوان صباه ، وهو من ناحية أخرى يهنىء نفسه على صبرها وحنكتها فجزاؤ ها الآن أن تجد بعد الدوار سكينة وراحة هى أشبه شىء بالنقاهة أو الشفاء . . لقد رضيت كرامته ! إذاً هذه الفتاة التى تشمخ بأنفها هنا للسماء تضع هذا الأنف ذاته فى التراب لأناس آخرين . . حسب الرجل أن يكون فى يسراه ثمنها حتى تكون هى فى يمناه . . لا مزاج ولا ذوق . . ولا عاطفة ! . .

ومال سامى فى مقعده يفكر . . آه لو استطاع أن يدخل عليها فى خلوة تهتكها فيجدها مع رجل حقير الملامح وإن كانت النقود تسيل من جيبه ، كما يسيل لعابه من فمه المخمور . . سيجدها فى جلسه مبتذلة خليعة ، أمامها بقايا طعام وشراب ، تختلط على الأرض أعقاب السجائر والبصقات . . لا روح ولا ريحان لاحب ولا حنان . . لا شعر ولا أناشيد . . هذا التبذل أليق بها وأنسب . . سينظر إليها من عند الباب نظرة واحدة بعينين نصف مطبقتين ، لن يكون مقطبا غضبا ، بل سيكسو شفتيه بابتسامة خفيفة . . وقد يهز لها رأسه . . لا عتابا ، بل ليبرهن لها أنه

لا يأبه بها . . وعندما يتركها سيشعر بالهدوء ، وأن الأرض أثبت ظهرا من السماء . .

ليس في قلبه تشفٍ.. فليس بين أفكاره وآماله مكان لمثل هذه الشهوة الدنيئة . . إنه كان يعيش كتاجر مرتبك في وجل مستمر من المصيبة القادمة ، فلا داعي للدهشة إذا صفى حسابه وظهر إفلاسه أن تشمله راحة ويتملكه هدوء حلو لذيذ .

وكان ذهن سامي يتنقل بسرعة من أسوأ الفروض إلى أبدع الأحلام ، فيصور نفسه قد لقي هذه الفتاة في مكان لا يهمه منه الحدود والأوصاف ، وإذا به يقتطف من ثمار حبه وحبها ما نضج ، هو يشعر من قبل اللقاء أن لذته لن تمت لجسده بسبب . . وإنما سيكون مولدها وعمرها وخلودها تحقيق الحلم البعيد المنال الذي طالما سعى إليه وجرى وراءه ، التقاء روحه بروحها . فهو يود من أعماق قلبه أن لا تنحني عليه الفتاة وقتئذ والهة أو تفصح له عن هيامها . . فهذه زيادة تنقص من كمال حلمه ، فقد يهمس له هامس بأن هذا الحلم لم يكن صعب المنال كما ظن ، وأن جريه كان عبثا . لا يريد أن يحس منها أنها تعطي لتأخذ وأنها حسبت حساب ذلك اللقاء واستعدت له ، وإنما تعطي لأنها وجدت نفسها من حيث لا تشعر في نهاية رحلة طويلة ، عاطفته وحدها هي اليد التي قادتها ، جنبتها المسالك المملة التي تألفها إلى طريق وارفة الظلال لها سحرها وفتنتها ، وكأن الطريق يضيق بها شيئا فشيئا حتى وصلت إلى حيث لا يمكن الاستمرار ولا تمكن العودة إلا إذا مس جسمها جسمه . . وهي ليست متعبة ولا نادمة فالساعة التي هي فيها لذة ونشوة تتملك القلب والروح والنفس فلا مكان فيها لغيرها ، فدارت ، وواجهته . . وعلى مرأى من نفسها وبحركة فيها

كمال النبل والكبرياء ، وإشعاع روحها ينبىء عن إرادة مستقلة لها كرامتها ، تركته يجنى ما يريد ، لأن الذى يريده هو بعينه الذى تريده . . لم يكن هذا اللقاء فى حسبانها ، ولا جاء بفضل المكر والحيلة والمؤامرة . . وأكبر ما يهز شعوره عندئذ ليس هو التقاط الثمرة وإنما غموضها وإشراقها ، وإبهام نفسيتها المكتشفة له حتى أعماقها . . لا يستطيع أن يجزم ماذا تكون خطوتها الأولى عندما تستفيق

***

وحاسب سامى نفسه حسابا عسيرا . . أليس من الحمق أن يسارع إلى تصديق رجل مخرف مجذوب معتوه مثل عبد الكريم ؟ هل هناك دليل واحد على صحة قوله ؟ إنه يؤمن بأن هذه الفتاة غير مبتذلة ، وأضعف الايمان أن يسلّم أيضاً بأن لها صديقا يصرف عليها . . ولم لا ؟ وما شأنه هو بهذا ؟ أبلغت به ضآلة الروح والحس أن يكون صورة أخرى لهذا الأنموذج العجيب من أفندية هذه الأيام ؟ هذا الفتى السمج الغث الفقير لا يقع على فتاة حتى يطالبها ـ كأنها أمة وهو سيدها ـ أن تمحو من وجودها كل شىء إلا شخصه الكريم ؟

إن سامى لا يضع لحبه شروطا ، وهو أرفع من الغيرة ، والتحكم والاستبداد ، لأنه يفهم الأرواح ويقرأ أسرار النفوس . . إنه يحب هذه الفتاة فى مجموعها . . لا فى تفاصيلها . . إن فهمه لا يضيق ـ بل يتبلد ـ بالمتناقضات والألغاز والأحاجى ، وقد يكون النقص عنده عنوان الكمال . . فسامى يؤمن بأن الكمال شىء ممل . . ثم لماذا نتعب أنفسنا فى طلبه وهو مستحيل المنال ؟

كانت الصلة بين سامى والفتاة لم تتعد - رغم توالى الأيام - النهج المألوف بين الجليس فى البار لأول مرة وبين الفتاة التى تسقيه خمرا .. غير أنها إذا رأته فى مقعده أسرعت ، دون أن تسأله عن طلبه - وجاءته بكأس من الويسكى من النوع الذى يشربه ، وجاءته بنقل مما يحبه ويألفه ، فهى إذاً تميزه عن بقية الجلاس ، وتفهم مزاجه ، وقد تقف أمامه وهو يحدثها عن الحر والسينما وهو مطرق أو يجالسها الشطر فتزد عليه متمهلة غير متأففة .. وربما فهم سامى أنها تطيل وقفتها وتنسى من أجله بقية الجلاس .. لا تنفك يدها تعبث بعقدها تلفه حول أصابعها ثم تفرده ، وخيل إليه أن هذه الحركة تحاشى معانى نظراتها .. وأنها لغة أخرى من اللغات التى تجيدها ، وإن كانت لا تتكلم إلا العربية أو البلدية .. لغات تحذف منها الأسماء ، ولا تبقى فيها إلا على الأفعال .. هل تقول له شيئاً ؟ إنه يرى مرة أنها تقول له شيئاً كثيراً ، ويرى مرة أنها لا تقول له شيئاً ، لا كثيراً ولا قليلا .. أليس هذا هو الغموض الجميل بعينه ؟ إنه واثق أن الجواب على ندائه ستنطلق به ذات يوم نظراتها وحبات عقدها ..

وكان سامى قد غافل نفسه ، وطلب إلى عبد الكريم فى ساعة فقد فيها اتزانه ، أن يُهيِّء له - بفضل هذا القوّاد - لقاء مع الفتاة .. فوعده عبد الكريم خيرا وأكد له أنه سينجح فى مسعاه .. ثم مرت أيام كثيرة وهو يعتذر بأسباب شتى .. أسباب واهية فى نظر سامى .. إذاً عبد الكريم كاذب فى القصة من أولها لآخرها .. وعاد سامى إلى أحلامه عن الأناشيد والطريق المعبد بالزهور المسحورة والباب الذى يفتح بلا صرير .

وجاء العيد الكبير والأدلة على كذب عبد الكريم لا نقض لها ولا إبرام .. فرأى سامى أن ينتهز فرصة العيد ويخطو هذا الحاجز الذى

يفصل ما بين فتى خجول معتز بكرامته وفتاة غامضة مبهمة . . ذات فتنة وسحر . . خطوة واحدة تكفيه ليعلم هل يستطيع اجتياز هذا الحاجز فلا يكون وراءه عائق بعد ذلك أم يجده مستعصيا عليه فيسلم - كالممثل الكبير عند إسدال الستار - وتنتهي الرواية . . وليس معنى انتهائها على هذه الصورة أن الزهور التي نثرها على الطريق قد ذبلت ولم يبق منها إلا الأشواك ! لا ! إنها زهور لن تذبل ، لأنها من غرس حديقته هو ، إنها ستعيش أبدا ، لأنها مرتبطة بذكرى خالدة فى نفس تتسع للمتناقضات والأحاجى والألغاز .

ولم يبتكر سامى شيئاً جديداً وعمد إلى الحيلة القديمة التى جرى عليها بنو آدم منذ أن انشقوا إناثاً وذكوراً . .

سيقدم لها هدية . . زجاجة عطر غالية . . ولكن أيليق بكرامته أن يتقدم هو بها إليها . أليس فى هذا نكران لمبادئه كلها ؟ وماذا يكون حاله لو لوت خرطومها وزجرته ورفضت هديته ؟ ها هو عبد الكريم أمامه مثال الرسول الأمين ، المطيع الذى يزج بنفسه فى كل مأزق من أجله . فلماذا لا يكلفه نيابة عنه ، فإن قبلتها فيا لفرحته وإن رفضت . . صان ماء وجهه .

وجاء بزجاجة عطر صغيرة تحمل اسما يوحى بالحب والليل تنام وسط فراش حريرى . . من يدرى ! ربما أذكت هذه الزجاجة الخرساء بين قلبيهما عطرا أرق وأبهى من عطرها ؟ وتسلمها عبد الكريم بعد أن فهم مهمته ووعد أن يؤديها بكل حذق ولباقة وظرف .

***

وفى المساء المتفق عليه سهر عبد الكريم إلى أن جاءت ساعة «التشطيب» وانزوت الفتاة على مائدة فى ركن فتقدم لها عبد الكريم وانحنى يقول :

– تعرفى ! احنا دلوقتى طلع علينا يوم الوقفة . وأحب أعيد عليك وأقول لك كل سنة وانت طيبة ، لكن مش عارف ، كلام الناس ده مش كفاية عليك .

والتفتت إليه سوسو وماتت الابتسامة على شفتيها ، فقد كان خداه يرتعشان ودل تلعثمه على شدة سكره .

واستمر يقول :

– الله أعلم . أنا بقى لى كام يوم أدوَّر على حاجة تليق بمقامك عندى على العيد . تقبليها يا ترى منى ولا متقبلهاش ؟ أنا ما فضليش حد فى الدنيا . . انت عندى أعز شىء فى الوجود .

وأخرج عبد الكريم العلبة من جيبه بيد مرتعشة قدمها بذلة للفتاة . .

علشان العيد وعلشان خاطرى تقبلى الهدية دى منى . حاجة صغيرة صحيح ولا تليقش بالمقام .

دهشت الفتاة حينما رأت الزجاجة الغالية فى يد هذا السكير الفقير الذى لا يشرب الا على حساب الناس . . لم يترك لها مجالا للتردد ، بل وضع هديته على المائدة وعلق بوجهها عينين متلهفتين محمرتين ، تكاد تلتهم نظرتها وجهها وتترك به آثارا .

أرادت أن تتخلص من هذا السكير وتقطع حديثه وتتقى شر خبله ، وإذا كان الثمن أن تأخذ هذه الزجاجة الجميلة فلا بأس .

– أنا متشكرة خالص ، مرسى . مرسى لظرفك .

قامت لتنصرف ، فأدار عبد الكريم وجهه للطريق ، أين هؤلاء الأصدقاء الذين يَزْوَرون عنه ؟ أين هم ليروا أنه لا يزال فى حياة الترف معهم على قدم المساواة ؟ كم منهم من يطمع فى أن يقدم لسوسو هدية . وكم منهم من ترفض له هذه الفتاة أغلى هداياه . . تألق وجهه واستقام عوده ، وانحدر طربوشه على مؤخرة رأسه . . وأخذ يلمظ بشفتيه . .

ونسى عبد الكريم فى نشوة انتصاره خيانته لوعده . .

(«المجلة الجديدة» ، العدد ١٠ ، أغسطس ١٩٣١ ، ص ص ١٢٤٩ – ١٢٥٦)

الشاعر بصير

انتهى الشاعر الهائم إلى ضفّة الغدير ، واستقرّ على حجرٍ يتيم مخضرّ المشيب ، أحاله من معنى ضائع إلى قاعدة مطمئنة لتمثال فذّ بديع . ترك الشاعر نفسه على سجيتها ، فأعانته على فضّ أغلال الزمن ، وعلى الفناء في الوجود ، فسمعت أذناه الموسيقى الصامتة وانطوى في محجره مدار الأفلاك ، وحنا عليه الإلهام فسما إليه ، وكانت بينهما ضمّة الأحبة بعد فراق .

طفقت اليمامة تراقبه من غصن شجرة قريبة ، باليمنى واليُسرى ، وكانت قد انقطعت عن شدوها حذر الإنسان الغشوم ، فلما أحسّت أنه الشاعر الموهوب ، زفّت إليه أجمل التغاريد .

أسلمت إليه المعاني والانغام والألفاظ قيادها ، بريئة من الزيف والخداع ، ومن اللبس والغموض ، ولكن أين القلم ؟ حتى يسطّ ما يختلج في طوايا نفسه ؟

جال شعاع مقلتيه في الفضاء فلما مرّ بالشجرة ، هبطت اليمامة من غصن إلى فنن ، وهتفت به :

– سَلِمْتَ ، ماذا تريد ؟

اتّجه إلى الصوت ، وابتسم وقال :

– هل لك يا أختاه أن تسعفيني بريشة من جناحك أسطر بها الوحي الجميل ؟

قالت اليمامة :

– اليوم يومي ، وليس عندي غير طِلْبتك ، وهانت ريشة من جناح ، مثلها عندي كثير .

وهبطت إليه الريشة مع النسيم . .

لم يكد الشاعر يكتب بالريشة كلمتين أو ثلاثا حتى ضاق ذَرْعاً ببطئها فاستعجلها ، فانقصفت بين أصابعه .

– أيتها الأخت الحنون ! هلاّ أسعفتني بريشة أخرى .

نزعت اليمامة ريشة بعثت بها إليه كأنها قُبلة .

وكان مصيرها مصير الريشة الأولى .

وتتابع عطايا اليمامة للشاعر ، ثم تهلك بين يديه ، واحدة بعد أخرى ، حتى قال لها وهو ضجر يعلو صدره ويهبط .

– ريشة أخرى ، عجّلي ، عجّلي . .

لم يبق في جناحيها سوى ريشة واحدة صغيرة رقيقة ، كانت تختفي بين الزغب ، وخشيت أن يستخفّها النسيم ويبتعد بها ، فهبطت اليمامة إلى الأرض ! كأنها تهوي من شاهق ، وسعت إليه متهالكة تحمل عكّازها

بمنقارها ، وارتمت عند أقدامه تلهث بجراحها . كسيحة السيرة فى قبضة الثرى .

وافترّ الشاعر عن ابتسامة الفرح ، أعاد للكون وديعته بعد أن صبغها بألوان نفسه الغنية .

وطأطأت اليمامة رأسها ، وقد غمرتها سعادة لاحدّ لها ، وضمّت اليها بقايا جناحيها العاجزين ، وجمعت شجاعتها ، ومدّت له طوقها ، وسألته بعيون تفيض محبة وحنانا :

- ماذا كتبت ؟
- قصيدة . .
- فيمَ ؟

فمنحها وجها تفيض عيناه بهجة وبشاشة وهو يقول :

- فى التغنّى بجمال الطير وهو يسبح بجناحيه فى جو السماء ! .

(مجلة «الكتاب» ، فبراير ١٩٥٢ ، ص ١٨٧)

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٩٦٦/١٩٩٩

I.S.B.N 977 - 01 - 6190 - X



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل . للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وإنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع